خضير ميري

صحراء بوذا

خضـــير ميـــري: صحـــراء بـــــوذا

الحضارة للنشر
٧ شارع أبو السعود – الدقى ١٢٣١١ – القاهرة

Al-Hadara Publishing
7 Abou El-Seoud Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Tel.: (20-2) 37 61 94 39
Mobile: (20-12) 316 48 67

E-mail: ask@alhadara.com
E-mail: hadara@idsc.net.eg
www.alhadara.com

الطبعة الثانية: ديسمبر **2010**

رقم الإيداع بدار الكتب **22373 /2010**
ISBN 978-977-476-033-4

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهـــــــداء

إلى عـــــلياء

إلى إســـــراء

وأمي بألـــم خاص

ذكرى حلم لم يتقاعس ذات مرة

بغداد (١٩٩٨)

(بوذا لا يـــموت فكان على الموت وحده أن يصدق حياته)

خ. ميري

خضير ميري في تجليات الصحراء

ياسين النصير

فات العرب أنهم لم يتخذوا من الفيلسوف ابن طفيل خليفة لهم، حتى لو لم ينتم لأية أرومة خلافية عليا،. فابن طفيل بوذا الإسلام ومفكرها، هو الذي مزج بين عطاء نهدي المادة والروح.. وكان لنا أن نعيد تفكيرنا بالقاعدة السابقة التي فسرت الحياة والنشوء بطريقة غير ما وضعت لها. ابن طفيل لا يفلسف الأشياء لغرض أن يقضي على طماح الناس بالحرية والخلق الطبيعيين، بل كان يقول أننا هكذا لا نستلم مفردات وعينا من خارج التجربة العقلية، والممارسة تعلمنا كيف نحيا، وما حواسنا إلا مجسات ذات طرفي بمثل ما تعرف العالم الخارجي وتسميه، تعرف عالمك الداخلي وتسميه، كان أبن طفيل مفكرا وفيلسوفا بغير انتماء لقبيلة أو لقوم، قال بما يشبه النبوءة أن الدين يأتي عبر التجربة، أما الولادة فهي طبيعية لكل الكائنات..

هذا النص الذي بين أيدينا "صحراء بوذا" يحكي عن ثيمتين كبيرتين: بوذا والصحراء، فبوذا لا يحده حدّ، والصحراء لا يحدها حد، التقاء المتناهيين في الكبر يفتح الخيال على النص المفتوح الأزمنة، بوذا والصحراء مكانان ملتبسان بالزمن، يتحدى بوذا كل التواريخ والأديان التي لحقت له، وتتحدى الصحراء كل

الأمكنة الكلية لأنها مكون لحبة الرمل الولود، وكما أن بوذا حي يجدد تعاليمه حتى في الذين لا يؤمنون به، الصحراء حية عبر قضمها المستمر للاخضرار.. الحكاية إذن فلسفية، كيف تكون التعاليم الحية الولود في بنية الصحراء القاضمة للحياة، النتيجة هي المربع الثالث الذي ينتج عبر الصراع بين بوذا والصحراء، وهو النص الذي بين أيدينا.. حكاية عن ماض يراد له أن يكون حاضرا، وحكاية عن حاضر مؤلف يريد أن يتماهى مع الفلسفة.. ولذلك فالنص يجمع بين الشعر والقول الفلسفي والرواية الشعرية بأثواب شبه تاريخية، لأن لا وقائع مدونة ملزمة لها، ولا وثائق شواهد، بل ذكريات وتجارب مفتوحة اللغة والكلام، خيالات تتداخل بوقائع حدَّ التماهي.. الكاتب خضير ميري لا يكتب إلا وعيه، يتجرد من العقلية ويذهب إلى هناك حيث تختلط الأشياء بمسمياتها بلغة لا اسمية، بل لغة فعلية، هذا النص تختلط فيها تجربة الراوي باستعادة الوثيقة – بوذا– ووضعهما سوية في فضاء الصحراء المادي أي في فضاء النبوءة – بوذا/ المؤلف.. وخلف النص ثمة بنية أسطورية،هذا شان الملاحم اليومية الحديثة حيث يُنهض الكاتب كل مفردات الحياة اليومية ويصيّرها شعرا بلغة أسطورية وبملامح ملحمة معاصرة، النص الذي يمتزج الشعري به بالنثري، الرومانسي الفردي بالواقعي الجمعي، محاولة تأسيسية لنص لا يقرأ بل يعاش، كما فعل ابن طفيل في حي بن يقظان، كتب نص الحياة لا النص عن الحياة، نص خضير ميري ينفتح على الإضافة والحذف، أنه نص الحياة القابل لأن تلغى منه تواريخ وتضاف له تواريخ أخرى عاشها مؤلف

آخر.. وإلا ما معنى أن يروي المؤلف حكاية عن بوذا، عن ذاته، فلسفة ووجودا وتجربة يغشاها ضباب السنين وتتضح عبر زوال غشاوة البحر؟غير أن يكون مؤلفها هو باسمه وهو بأسماء لذلك كان النص جنسا ثالثا، دراميا بأثواب القصة، ذاتيا بلغة الجماعة، وفي الوقت نفسه يحمل بذرة تدميره لأن الجنس الأدبي لم يتشكل بعد على هوية النوع، وبهذه السعة الأسلوبية غير المستقرة، نقرأ ونتأمل..

النقطة المهمة في هذا النـــص الإشكالي، أنه يمـــزج بين ثلاثـــة حقول: النص التاريخي، والنص التراثي، والنص المفترض، وهذا الأخير هو الذي نقرأه، بينما النصان الآخران يختفيان خلف النص المعلن، ويعني ذلك أن المؤلف يلبس ثوب المؤرخ تارة وثوب الراوي تارة أخرى وثوب القاص تارة ثالثة، ونراه وهو يتحرك في هذه الحقول الثلاثة، أنه قدير يملك أسلحته الحفرية وعدته الفكرية، لكنه لم يستطع كأي راوٍ معاصر أن يلغي ثقل التاريخ على نصه، ولا أن يكون راويا نقيا يروي حادثة كأي مؤرخ أعمى للتاريخ، ولا أن ينتمي كليا لنصه بوصفه رواية أو حكاية، هنا يمكن القول أن البعد الفلسفي للتماهي بين المرجعيات كان الأقوى في التأليف في نصه الدرامي الأسطوري الذي يقع تحت عباءة النصوص القديمة، فهو يكتب عن صحراء وعن بوذا وكلا هما بنية لمكان مجهول..

ترتبط النبوة دائما إما بالخراف والرعي وإما بالأفاعي والحكمة، وكلا الكائنين الخراف والأفاعي، يتوزعان النص/ النبوءة، فلا

نبي بدون حكمة ولا نبي بدون رعية، وهكذا يتداخل فعلا السلطة والمدينة في تصور أي نبي، خضير ميري ينثر مناخ المدينة المتخيلة لكن كل نصه قائم في الريف حيث يدخل بوذا في بوذا دون أن يعترض أحد فاللسان النبوئي لم يظهر في مدينة، بل في الريف والقرية والمعابد المعزولة والكهوف.. ربما نعود إلى أن الإسلام وحده من جعل من الآخر "أهل كتاب" وهذا ما جعل الديانات الأخرى في معزل عن ما يريده الإسلام من الناس، وهكذا يجعل خضير ميري بوذا من أهل الكتب الرائية ومن أهل التفكير الحي والمعاصر ليس عن طريق تلبس شخصيته بل عن روايته، أعني رواية خضير عن نفسه، فبوذا هنا كائن في المؤلف وليس خارجا عنه.

في التأليف الحديث تضيع الفواصل بين الشخصيات والأمكنة والأزمنة، التأليف هو جمع لموجودات واقعية ومتخيلة، يأتي بها وقد حذف أسماءها واحتفظ برموزها لذلك نجد لبوذا عشرات الصور والأسماء مرة بوذا وأخرى الشبح وثالثة متماهيا مع الأفعى أو أي كائن آخر..

كيف يمكننا أن نحتفظ بالسياق والكاتب ينتقل بين الأزمنة والأمكنة كما لو كان ممتطيا طائرة؟ لأول مرة أجد أن اختلاط الشعري بالنثري يجرد الأمكنة والأزمنة من معانيها المادية ويخضعها لمعنى النص،.. ربما ثمة كائن مجنون يروي دون انقطاع عن بوذا/ المؤلف، هذا الإنثيال المتفق يشعرنا بمجرى نهري كبير فيه من ماء الشعر وما الرواية وماء الحكاية وماء

الفلسفة، وربما أن خضير ميري وهو المشبع بالفنتازيا وحلم الشعراء يحول نصه النثري إلى مقطوعات تقال هكذا وتقرأ بصيغة الكتب النبوءة، هل ثمة ساحر مجنون يقبع خلف نظارته فيرى الأشياء بالنسب التي يريدها ولا يراها كما هي في الواقع، وعندما يتحقق له حلم التوحيد الصوري والمعني بين الأشياء لا حدود للغته أو افتراضاته مادامت الأرض التي صنعها صالحة لإنبات حتى الشياطين..

على غير عادته رمم من السماء ما يكفيه للصمت وأخذ من الأرض كلها صولجانا ونام على أضلاع الموتى كأى جرح فى تلة أو رعشة فى موجة أو خفقة لطائر.

وكان بوذا الحكيم وحيدا فى جلده الأرضى، وله فى عينيه عتمة محارب وعلى جبينه كتبت الريح هو "جوتاما" خمسة قرون من عمره المألوف ما فعل شيئا على الإطلاق لكى لا يسىء إلى شىء، هو الذى كان غيابا فما تكلم بلسان ولا سمع بأذنين ولا التذ بكفه ولا سكر بأنفه ولا عاقر خلاياه وكان ظله على الماء.

فأجاب:

– حتى يكون لك بيت قرب البحر خذ البحر كله وأترك البيت.

ورقص طائر أبيض حينها فى السماء.

فأجاب:

– إذا ما عشقت طائراً فى السماء لا تكلمه عن الحب بل أدفع عنه كراهيته.

وعثر قدمه بحجر صغير فانساب ظله على الرمل البارد ودمعت عيناه.

فتمتم قائلا:

– من تفض عنهُ ذاته... يغرق. وصرخت الحشرات متعاطية عويلا موحدا والريح هاربة من الأقطاب تفتح أزرار المعاطف الجلدية.

وتـــُخطّىء الصيادين فى أثر الطريدة وهزت عشبة هناك وخرجت "معزة" مدماة هزيلة وفزعة. وعوت ذئاب كثيرة فى رأس بوذا فتألم قائلاً:

– معزة واحدة تكفى لجميع الذئاب: هكذا هى الحرب.

وأذن للمعزة بالابتسام للموت وسمح للذئاب بأداء رقصتها الوحشية وبصق على كفيه فنامت "الـــمعزة" غير آبـــهة وقادت الذئاب أنيابها نحو الوليمة وعطس ذئب متراجعًا وعرف بوذا أنه حصل على مستمع جديد فمن يُرد أن يسمع لابد أن يكون وحيدًا وراقه أن يقول:

– الشر لا يتأمل على الإطلاق، فالشر لا نوايا له فهو كله فعل ما بعده فعل.

ولا يبدو على الذئب المرتد التراجع فسرعان ما انقض حتى على الذئاب نفسها ليأخذ نصيبه من الحرية وتكاثرت فى الأعالى ندوب سوداء بأجنحة حادة تطلق على الريح صرخاتها الجنونية وتسمح للضوء كله بفتح عيون الذئاب حيث يمكن للأمل الوحيد للنجاة بالعتمة أن يبدده نور النهار.

– من لا يكن له ما يكفى من الألم لن يكون له فم واسع لابتلاعه.

وما هوّن عليه مرارته الأبذخ الشمس فى ألقها، والسلام الذى حل، بالأشواك البرية وامتنان الذئاب بهذا الكرم الذى أعطاه أياها ضعف الكائنات، وكان يلزم شجاعة لكى يكون الظلم صادقًا حتى فى أكثر ساعاته شراسة وما يسرنا بعد هو تلك اللحظات التى أضمرها لنا الموت وحط فيها علينا أبدًا... فكان الموت هو الطمأنينة والفناء هو المسكن الوحيد الذى تدخله بلا استئذان.

وأزعجت الشمس اللاهبة عينى بوذا حتى أخذ منه النور سلامه وداعته.

وأسلحة صبره الأزلى
وانقض عليه طائر من ذهب
وآخر من طين
وشتمته أفعى فرت من تحت قدميه العاريتين.
وسخرت منها أفعى أخرى كانت قد سقطت من منقار "نسر" وهى تقول:
– لا يفر الشر من خطى حكيم.
وما قالت ذلك حتى جفل بوذا وأجاب:
– لا تكن راعيا للخراف
أفضل أن أكون راعيا للأفاعى.
وأنشدت الأفاعى نشيد الصحراء
بجمال السماوات وفقر الغنائم
بحب الزوال
وصوت الأبد
كان الجمال وهما بلا عينين
والإنسان كله ماء.
وإذا ما احترق الماء كان الطين جمرته
والعقل كلام جميع الألسنة
والآلهة حدود
بحب الزوال
وصوت الأبد
كان الجنون مسار النجوم
ومجرات أعرافنا
وزعيق الأعماق
وكلمات الحكمة... نملة

والنملة فكرة فى صحراء
فاستوت الصحراء... كلامًا
والرمال أجسادًا
والغيوم دموع
فكان بوذا أزليا مثل حافات كوكب بعيد.
توًا سرقته الأنظار
وتكاثرت جماعات الأفاعى كأنها أصابع لوبـــياء سلقت توا
وتمـــتم راع من بعيد وهو يتأبـــط "ماصوله" وعكازته غصن "يوكالبتوس" معوج من نهايته.
– هو الحكيم الوحيد على هذه الأرض حكمته قبعة السماء وكلامه خزين كشتاء النمل.
فما مال عليهم الحكيم (بوذا) وما استرق السمع لثغاء خرافه الأربعين حين سمع طنين جرس علقه الراعى فى رقبة كبشه الأثير.
فأشار عليه الحكيم بوذا قائلاً:
– أبعد هذه الكبش عن بقية خرافك... فالموت لا دليل له ومن المخجل أن يكون للضعف قرون.
وخجل الراعى وهو يصبر على تعنيفات بوذا وقال له:
– باركنى قليلا.
فأجاب الحكيم:
– لا شيء سوى الكلمات وما عرفنا إلها صامتا إلا كان إلها من حجر.
فرد عليه الراعى:
– باركنى قليلا.
وصرخ بوذا الصبور قائلا:

– ما أنت إلا كهذه الصحراء وما هذه الصحراء إلا كمثل عالمنا هذا لا مرآة أخرى لنا ولا حتى جرس كبش يعيننا على تتبع أثر باقى الخراف.

ففر الراعى هاربا وتبعته خرافه الأربعون.

وما أن وصل بوذا إلى تلة هناك حتى شاهد الراعى يحلق عاليا كنسر تتبعه خرافه وهى تضرب الهواء.

وقال الحكيم مبتسما:

– ما فائدة ذلك إنهم يحلقون إلى صحراء أخرى لا حدود لها لقد سقط الإنسان على هذه الأرض لكى لا يبقى واقفا بلا قدمين.

وسمع بكاء امرأة شرقية ذات نقاب أسود وهى تدفن طفلها الوليد ومسح رأسها وهو يبصر، التراب فى فم الطفل ويألف رائحة جسده الغض المنكمش.

– ما الموت إلا طفل هو الآخر.

لابد من دلال ليسكته.

وشهقت المرأة ذات النقاب وقالت:

– ما كان همنا أن ننجب الموت وما كان دأبنا أن ندفن أنفسنا من أجل إرضائه.

وانشغلت بالتراب وحسنت من وضع حفرتها الصغيرة وأجهدت نفسها كثيرًا بتجميل منظر قبرها البدائى وسرعان ما عضتها سحلية رمادية اللون فصرخت لتستغيث بالحكيم بوذا.

– أهكذا يجزل لى القدر العطاء!

وما أن رآها الحكيم فزع من أجل حياة دفنتها بين يديها حتى تبسم "بوذا" قليلا وأجاب:

– لا تموت الشجرة قبل قطعها.

– وما ذاك؟

قالت المرأة وهى تأخذ نصيبها من حمرة الخدين بعد أن انحسر النقاب عن وجهها قليلاً.
فأجاب منهمكًا:
– عذرية أرض، وكفاية أمل ومسيرة تيه.
أيها الموت ما من حكيم مر على هذه الأرض
وأعطاكَ كفايتك من المعنى.
ما من قلب واحد يزيدك على ما أنت عليه
أو يقلل من شأن جبروتك...
ما من فجوة فيك أطل عليك منها
دونما غياب
ولا حلم واحد يدلق لسانه خلفك
ويعود إلى يقظته آمنًا
لا صحراء تماثل صحراءك
ولا نسيان يشبه السكون فيك
لا شيء أكبر من تلاشيك
ولا صلادة قاطعة
كصلادة التماس معك بتيار هواء.
وما أن ألقى سلاحه من لسانه وأرجع رأسه إلى غمده حتى دفعه ظله برقة أنثى وكان أمامه عنفوان جديد قادم ورحلات باتت وشيكة.
وفكرت المرأة ذات النقاب
– بأى علامة... أميز قبر طفل فى صحراء؟
فسمعها الحكيم "بوذا" فى سره فأجاب:
– من تكن له صحراؤه لا يفكر بقبر صغير.
وصرخ الطفل عاليا وفرت السحلية بعيدا

وتحرك الدم فى عروق البوذا الحكيم
وتمنى لو كانت للصحراء نوافذ وأبواب ليغلقها دونه، ونفض الطفل الصغير التراب عن جسده
وأخرج رأسه أولا من فجوة بحجم الكفين
ووقع بصره الصافى على وجه الحكيم "بوذا"
– كدت أعرف من تكون أيها الطفل اللعين لو لم أكن كحالك الآن. من الذهول؟ بأى حق أتاحت لك السماء ما لم تقرك عليه شرائع الأرض؟
وعاود الطفل الصراخ وجلب انتباه سرب من القطا كان قادما من هناك
وهمّ بوذا بردم التراب على رأس الطفل اللعين لكى لا يكون هناك خلل نرعاه وحتى لا تكثر الطبيعة من العبث بالقلوب.
وقال ظل متروك بعرض الصحراء:
– الحكمة تدفن أشلاءها جاء الزمن الذى يتحول فيه الحكيم إلى حفار قبور.
فأجاب بوذا غاضبا:
– كلا أيها الوغد بل هو الزمن الذى يطلق فيه الظل أحكامه على الأجساد وتذهب الشمس خارج مدارها لتتسكع على الأرصفة.
فلاذ الظل هاربا متمسكا بأذيال الشمس وجاء أوان الآلهة المغشوشة وهى عادة ما تأتى بعد فوات الأوان.

آلهة مغشوشة

هو الذى بلل ريق الهواء وصعّد نفسه فى هذه الآفاق غير مكترث
بالخطايا وسمع "حزقيال" يقول: (بلا هاوية لن يبجلك أحد).
وكانت له الهاوية والزق وجلد الطبل.
منقوشا على الهاوية
(الساحرون جمرات نساؤهم من خوص
وأبناؤهم خصلات نار
وحريق حلم
ولهم فى الليل كائنات ضوئية وسرقات وقبس من عويل
ومنقوشا على "الزق الأخرس"
(مثل زرادشت فى قرن مضى
يجيء البوذا بصحرائه الأخيرة
لحظة توسيع رقعة الفناء
حيث الآدميون يصنعون كل شيء
بأيديهم حتى يبلغ بهم الأمر صناعة اللا شيء كذلك)
ولا شيء غير هذا منقوش على جلد الطبل:
"بوذا يجيء بعد أن تكثر الآلهة المغشوشة"
وما أن صدأ النوم فى رأسه حتى أيقظه برق السماء أخيرا
هو (البوذا) الذى خرج توا من حلمه السرمدى
وسأل نفسه: ماذا رأيت فيكِ؟
فأجابته النفس قائلة:
عجلاً من ذهب

وذهبٌ على الرأس
وضريح دودة
وهذا الذى عنوة أسقط مصر
وبيته من صلاة
وأسلحته من صفير
وله عادات كأنها الفصول من أثر المراهقة
وحكّـــم أمره لشجرة الرمان فقالت:
ما رأينا له جذورا
وهو الدخان محروم من الرؤية
وواهب أوهامه إلى عامة الناس
هكذا هو الغد وكل غد
واستحال "الكابوس" آدميا وهشم وعاء النفس ولعق جذور شجرة الرمان.
فاستحالت رمادا وعض الحكيم بوذا إصبعه اليسرى وهمر "الكابوس":
أن أقعدْ
فقعد وكان عرضه بسعة الصحراء
ورأسه بحجم إبرة
وقلبه أشبه بجمل يبرك.
– أتريد أن تكون آدميًا؟
فنطق الكابوس:
– هو ذاك.
– عليك بأمك أولاً أقتلها لكى تكون أبًا لمن تريد!
تراجع "الكابوس" بضع خطوات ثم طار مسرعًا فحمل الليل كله على جناحيه.

فشهق "بوذا" مذعورًا وألتفت الكابوس باتجاهه وقال ظافرًا:
– أبوذا حكيم الحكماء ويفزع؟
فقال بوذا مستدركًا:
– أكبر الحكماء سيفزع كما فزعت. فأى حكمة ستبقى فى رؤوسنا لو كان العالم كله نهارًا؟!
فسكن الكابوس فى منتصف طيرانه ومنذ ذلك الحين لا يأتى الكابوس إلا فى أكثر الأوقات حلكةً.
وكانت الآلهة المغشوشة تراقب كابوس بوذا وهى تحث الجند فى رقعة النهار وتبشر بالصواعق القادمة لا محالة ليكون الكابوس كابوساً لليل والنهار.

ونفض البوذا الحكيم عن عكازته رمال الصحراء وشمر عن ساعديه وصرخ بمجمع الأرانب البرية.. أيتها الأرانب الفزعة دعوا مساكنكم التى هى مخابئ لا تصلح ألا للجرذان وهلموا إلىّ.

فانبثقت الأرانب البرية من كل جهة من الصحراء وعاثت فسادًا بآثار الجمال وقوافل الحج. وتكاثرت على ظله ونامت على قفاها وهى تعرض جلدها بمهاده دون أن يرقص الخطر الدائم على شعرات أنفها الصغيرة وكانت الثعالب تنفخ البالونات فى معرض السيرك عند كهوف الصحراء البعيدة وطوح (البوذا) الحكيم بذراعيه فى الهواء

وكانت الأرض قفصا كبيرا يقلب فمه حيث يشاء

والسلام لعبته الصغيرة المدللة التى ترسم على وجهها صورة أرنب يبتسم ووقفت الأرانب صفوفا... صفوفا تنتظر كلام الحكيم.

فقال على مهل:

– لتتعلم الكائنات الصغيرة الضعيفة المقهورة الرقص لأن الضحية عندما ترقص مسرعة تربك مسار الرصاصة الموجهة إليها.

– تكاثروا كالحشائش أيها الصغار لتضايقوا رغبة كبير واحد.

– تعلموا الثمالة بالهمة ذاتها التى تعلمتم فيها الرقص فالرأس كالأرض نصفه ليل ونصفه الآخر نهار ولا يبدو مناسبا أن يكون الليل مثل النهار.

– لا تفرحوا بضمير ينام فيكم فالضمير آخر المتكلمين فى قلب مظلوم لا يحكم

– عليكم بالخضراوات أيتها الأرانب فلستم من لحم ودم لتأكلوا اللحم.

– أوصيكم بالشرف ليكون لكم إله واحد تدافعون عنه برغم الجوع فعندما يشبع الإنسان يعتدى حتى على الإله الذى وفر له كل شيء.

– لا تتعلموا البناء فوق الأرض طالما أنكم لا تنامون دائمًا فوقها.

– أسَـــمّى أرنبًا كل من له أذنان طويلتان حتى لو كان حمارًا.

وصمت بوذا، صمت أكثر مما يجب فراوحت الأرانب بأقدامها، وما أن شاهد بوذا إصرارهم على أن يزيد أكثر حتى صاح بهم:

– لا تقولوا كل شيء وتذكروا أن نهاية اللسان جمجمة.

وسخنت جمجمة بوذا قليلاً وسرحت به أركان الصحراء

وكانت عيناه تحدقان بالرمال السائلة وقد عضّتْ على قدميه المتاهات وأول المتاهات التى تفتحت على عينيه... كانت عودات بوذا... تدفع عصاه التى أبحرت بعيدًا دونما تردد أو وجل.

وما أن صّرت عجلات البغاة وركلت طهارة هذه الصحراء حتى أبعدوا التعذيب وراء الجدران وأصبح عددالمذنبين بعدد الأحلام وشاءت الأقدار أن ينمو للسلطة رأس ومخ وعينان وكان (بوذا) الحكيم ينوى أن يضع الرأس عاليا كما لو كان قبعة نجمة مضيئة... إلا أن الرأس انـــتفخ سريعًا وشبع بتاريخه الدموى، أصبح متعذرا علينا بعد ذلك حمله سليما بين الكتفين فكان لكل هيكل آدمى صخرة يحملها عنوة ثم يسقطها أرضا... ثم يقسط سقطاته الألف عليه وما أن وهن العظم فيه حتى أخذ يحصى سقطات الرؤوس مضروبا فى قرون... هكذا هو تاريخ الألم.

تاريخ العودات القذرة

تاريخ الخرافات المهينة

وحمل بوذا الحكيم مصباحه الزيتى و"خرجه" من التمر اليابس وبال خلف التلة السمراء وأراح صدره يتنسم هواء منتصف الظهيرة وسمع صوت "كنارى" وجفل فبصحراء كهذه غير مسموح لطير كالكنارى أن ينشد واثقا، هناك نوعان من الطيور.. طيور الأشجار وطيور الطين وكلاهما يحمل حياته على جناحيه، وفكر بوذا بحكمة طيور الطين فى صحرائها فعرف قبل غيره (أن الصحراء هرب الأرض فى مواجهة السماء ومن الصعب تصور إله فى غرفة نوم أو نبى فى قاعة للمطالعة.

لابد من تيه لأى هرب قدر له أن يكون نبوة عن باقى البشر).

خيل إليه أنه لا كنارى هناك

بل هو الموت يغرد فى غير أوانه
فخيل إليه أكثر من هذا... بأن الصحراء تحولت إلى طائر من رمال
كما تحول الموت إلى نشيد
فكانت الصاعقة

ونبحت فيه الخليقة كلها فأسفرت عن الحب وهو كراهية مخففة عن الشر بوصفه احتراقا لبذره من أجل البقاء.
وعن طيش العقول بقبضة من حواس وإدمانا على النسيان وشيخوخة حلم.
أيها الذاهبون أبدا نحو الأبد.
وكأن عودته المقبلة رحيل...
فرحل إلى نفسه وأرخ الأسطورة بمعبد "دولفى"
"أعرف ضدك لتقول فالكلام بقاء"
فقال:
– كن نفسك أيها الخطر وكونى ذاتا أيتها الفوضى المهذبة
فانفجرت الذات فيه ولسان فوضاها يقول:
– ها هى عودات بوذا عودات نيازك واحتراقاتها
إنها دورات فراشة ضالة ورحيق ودم لأفعى
إنها ما تجيز لى تفضيل الاحتيال على الوهم
والخروج زيادة عن سليقة الغرباء
ما من أحد عائد قبل "بوذا"
ما من حقيقة تعود أبدا سوى الحب والموت والجنون
وهما ثالوث الزمن الأبدى ومعنى السقوط الأول وحلم آدم فى نصف حواء ورحلة أقدام عالقة لم تجز لها الأرض الوقوف أمام أحد.
كان يود أن يصلى فى مكان لا يشبهه آخر
وإزاء كيان لا يسىء إليه الكلام

ورحل الحكيم بوذا رحلاته الثمانية من أجل أن يصلى وحيدا حتى عن قلبه وغريبا حتى عن عينيه موحشا ومسلوخاً عن جلده وغير قابل للإشارة إليه، مترلقا عن سطح أرضه ومقذوفا خارج الهواء، ممسوخا كظل بلا حيز وكشمس بلا أكوان

غير مسمى بعد ولا مفكَّر به من قبل

لا صلاة كافية تتيح له أشغال الفراغ

ولا ثقل فى رأسه يساعده على التذكر

كان يود الصلاة بلا لسان يحرِّف الكلم

وبلا أسنان عاجية تحدد مسار الألفاظ

فهمس لما تبقى لنفسه قائلا:

– أصلى لا لكى تمنحنى السماء نفسها بل لكى تدعنى الأرض بسلام.

وكانت زهرة واحدة هناك بمحاذاة عصاه المعقوفة

عندها تذكر قائلاً:

رغم الحيطة والحذر هناك من رآنى

وأنا أفنى بالصلاة ولا فناء بعد ما دام

هناك من يتذكرنى أو يحلم بى

ولا صلاة حقا ما دام هناك خاطرة فىّ أعماقى الواحية قد مست جرحا فى جلدى أو عطشًا فى أطرافى أو صوت ريح تميل بى بعيدًا عن هذا العالم

لا صلاة لمن... ينام مطمئنًا إلى عودات الحياة

أو يرغب فى مرآة لا تغرق عينيه

ولا تلاشى قامته فى إله لا تساؤل فيه

ولا معنى أكثر أو أقل...

لا حدود أبعد ولا حتى غايا تقلى فى الصدور

وكان هاتفًا يقول:
– لا تأخذ من السماء شيئا... لكى لا تدفع لها كل شيء.
وكان ما لدى البوذا الشيء الكثير
وما نجومه إلا جروح نازفة
ونهاره دمٌ على زجاج
أيها الأبدى يا من نبحت عليك جميع الكلاب الآدمية
ولا تزال تفر سعيدًا وهادئًا برغم الصراخ.
عليك بشبه الضوء ومخالفة الوعيد
والإتيان بالظلام الطليق المناسب أبدًا لهذه البقاع
– ولا تخدعني بالأمل الذى طال حلمه
وفطر على زمجرة مقاتل حانق.
– الأشلاء التى بقيت خلفى هنا
فى غابة الجدران والحديد
لن أكفر عنها بالأمل الرضيع
ولن ترطب جروحها الفاغرة الأفواه
قبضة من دموع
"وما سمحت لى بعد قطرة دم جديدة
من أحياء الحشرات التى تسكن فى رأسى"
وقيل أن بوذا الحكيم أمسك رأسه بين ذراعيه
وكان يود لو يترك صخرته الثقيلة أمانة فى صحراء
لولا أن مشاغل جديدة، أخرى، كانت قادمة إليه بلا استئذان.

وعلى كرسي أثلم المسندين... خصص لنفسه نفساً لا تضاهيها...
وسلم لقرينه كل أوراق اعتماده وكان عمره الممضوغ جيدا ظلا لشمس تاهت منه منذ صباح أول للخليقة
ثم أناخت السنين حملها على ظهره العظمى وعضته المكائد وآفات العصور.
ورأى منفاخا يدويا بحوزة "رقّاع حديد" كان بياض العمر قد حطّ على عشة رأسه المستدير فتبسم قائلا:
– ما من بوذا جالسا فالحكمة هى أن تعيش واقفا على ساق واحدة.
فتذكر، البوذا غير مسرور:
(الـــمسلة المعدنية وشتاء الزلزال الأعور، ووجه مدينة "الله معنا")
فأخبره "رقّـــــاع الحديد" عن راعى مدينة "الله معنا" مفتتحا كلامه
(باسم الأعلى وحصة الصحراء ورعب الماء، بزجاج الروح وموقع الشمس وعزة كل صباح هكذا كان)
وكان هذا
(نصب الديناصور تمثاله الأزلى فى قلب طفل
وذبح الشيخ بلا نذر يذكر
وأباح نساء المدينة على مذبح الصبر
ورقص على العتبات يرتدى تابوتا نحاسيا

وبصحبته أبريق من القهوة وكان سدنته يطيرون على زنابير بعجلات حديدية ويضعون علامات فارقة على قفا المهرولين نحو ولائم القصب والسكر واللحم والشاى.

أقول:

– حروب مزمنة وذاكرات دموية حتى أن الفحولة غدت باهتة وامتطت الفروج أحمر الشفاه

وكتبت بقلم الكحل مستقبلا آخر لا يسع من الرجال غير جيوبهم وشىء من الماء الرائب

فقاطعه بوذا غاضبا:

– على رسلك... ما أردت منك نهايات خليقة

بل بقايا هواء... ما أمكن

فقال "رقاع الحديد":

– المال، المال يا سيدى هو بقايا الهواء فى أرضنا التى داخت كثيرا حتى أصبح مجىء الشمس كل يوم حسنة غير مقصودة.

همس "البوذا" له قائلا:

– هو الدوران إذن هكذا يموت القلب من جراء لهاث الكواكب وسيرورة الدم.

– أما الدم فهذا ما عاد يجرى فى عروق البشر بل يشاركهم فى كل حين مسيرة القدم.

– أترى شيئا من شجاعة؟

– كلا على الإطلاق فلا أحد يصارع أحدا وجها لوجه لقد كثرت الوسائل أما الغايات فلا قوة فيها على المجىء أخيرا.

فأجاب "البوذا" مأخوذا:

– هذا صحيح لقد جاء الزمن الذى نرى فيه الغاية تبتكر الوسيلة ولا تبررها.

وأنتبه "البوذا" أن زمنا طويلا مرّ وهو يتأمل قولته تلك فما كان ثمة رقاع حديد ولا شمس بمعيته وشعر برغبة فى البكاء فهو الآن كله بين يديه ونعمة حظه وترنيمة وجدانه المثلوم

إذاك زمن رمادى جدا

أم هو قبضة من عدس

ولحسة هارب

وعدّل من نيته الذهاب إلى مدينة (الله معنا)

فما أخبره به رقّاع الحديد يبعث على الأرق إذ ليس ثمة عطاء بعد وكان نصفه الآخر من ذهب ونصفه الآخر من صفيح.

ولملم البوذا مشاغله الألف وعثراته وخطرات فكره المرعب فقال غير آبه بما قاله (رقاع الحديد) وأسرف فى دق التشاؤم فى نخاعة الرقيق (فما قولات كهذه إلا ردود أفعال وجفلات أرانب ودورات فئران ذوات رؤوس آدمية) وحكم ضميره عليه

فأخبره ضميره قائلا:

– دع ما لقيصر له وخذ من الجنون وقايةً لعقلك ومن الصمت جسرًا فى صحراء ومن الحب فناءا بآخر.

وخرجت من كوة فى تلة جانبية عقرب شمطاء عاقرت طويلا عصر "التماسيح" الألفى ولها الفضل فى حرق الأعشاب فى أوردة الشمس.

– سلاما بوذا.. لك الماء والورع وينبوع السعادات.

– لك ما يشبه الغيم ولن أجرؤ على أعطائك السلام

فلولا الشر فيك لما عمرت طويلا.

– أيكون الشر أهون على الإنسان من خير لا يدوم

– يموت الإنسان سريعا عندما يأكل رأسُه جسدَه

– أنا العقرب الأبدية

– وأنا سليل الحكمة فى صحراء
– أنا الكيان وقبة السماء ودرع الحروب.
– أنا الحب عندما يسقط الإنسان على رأسه ويقامر بالآلهة المغشوشة
– أنا النصف الآخر لمعناك.
– لا نصف لى، أمثالنا يحملون فى قطرة دم مغامرة كل شيء.
– ما هذا أوان خروجك، صدقنى فلا أحد يصغى وأصبحت الآذان زوائد لحمية والألسنة لها أسعارها والقلوب تكرارا مقيتا
– ما جئت أتكلم وأروج للإنسان أى إنسان، لست مؤمنا بالرسالات ولا بالمعانى الأخيرة..
– أنا طائر حر فى عنفوان ضياعه
شوكة واحدة تكفى لفناء خليقة، وها هو فنائى يخصب نفسه
فمالى غير نعيم السكون وقلة الحركة والرعى فى الغيوم
وكان البحر خلفى وأمامى الحرائق
فلحس البحر آثارى ويـــتّم وجودى من كل معنى
وما أن أصغيت إلى البحر حتى توسلت به قائلا وأنا أشاهد الأمواج تنتهى إلى الشاطئ
– يا ليتنى مثلك أيها البحر فلك حافات تنتهى إليها
أما أنا فلا حافات لى فكل ما فىّ بحرٌ
وجاء صمته علامة شرود وبقـــايا أرواح أســـماك أكلتها اليابسة بشراهة.
– ما من أحد يفضل الكلام على الطعام
وها أنذا آخذ مشاغلى على عاتقى وأضرب الأمثولة

وما أن سمعت العقرب الأبدية كلام البوذا حتى هبت واقفة وتقدمت حتى لمست أطرافها عصا بوذا ومدت كفا معروقة فى جوفها (بيضة) صغيرة ملساء رمادية اللون ونطقت متوسلة:

– خذها أرجوك فلا يلقح بيضة الشر إلا غباء حكيم.

فتلقف البوذا بيضة العقرب الأبدية وصعد التلة سريعا وطوح بها عاليا وكانت رميته تلك قد أعادت إليه شبابه وهو يرى بيضة العقرب تلتهم الأفق البعيد وتجتاز ما شاء لها من الأصقاع.

ضحكت العقرب الشمطاء ضحكات صارة وهى تلحظ البوذا الحكيم هابطا على مهل تثلم أظافر قدميه نتوءات الرمل البارد، فساءته ضحكتها وقال متسائلا:

– فيم عبث الضحك فيك أهو مثال الخيبة ورثاء النفس؟

– كلا أيها الحكيم فلقد عرفت لا محال حسنات الحكمة كلها فى هذا العالم.

– ماذا تعنين؟

– أرأيت لا يقذف شرى بعيدا ولا يلقح الصحراء بصفار البيض إلا حكيم غبى.

– أفعلت هذا ويحك؟

– وهن الشباب منى فأخذت عنى عناء الذهاب إلى أطراف العالم أيها العقل.

– بل هو الجنون بعينه أن أغالب عقربة وأهشم الشر بعيدا لا حكمة إزاء إهدار شر لا يجارى فما نغمض عنه عيوننا ينمو بعيون أخرى لا تنام.

– نسيت الحكمة فعلها الأبدى أن تنقب فى الموت فتحولت منه إلى الحياة وكان ذلك ضياع وقت.

فالموت وحده عليه أن يكون شاغل الحكمة وما الحياة إلا نسيان مؤقت لموت لا نسيان فيه.

فسلم البوذا الحكيم أمره للعقرب الشمطاء ولعبت أناملها فى شعيرات لحيته البيضاء وأخذ منه الضعف مأخذه واحمرت عيناه حتى كان الدم يرسم له طيوفا عالقة بأهداب وارمة وآوت به إلى كهف صغير يقال له (دلفى) أو (ضرع الكلب) وهناك سقته اللبن الأحمر وأطعمته شحم خروف وثقبت أذنه اليمنى وكحلت عينيه بالفحم وأنامته فى حجرها وهى توسوس له بأشباه أفكار.

وكانت نـُـتـــفها تقول...

– أعبد النار وأحرق حواسك فى العسل وتطهر من عظمة الصحراء لكى تكون أليفا كحشرة مخصية.

– ما الحكمة إلا جهالة وما الخوض فيها إلا سؤال فى سؤال.

– ما شأنك والإنسان دعه يأكل أشلاءه فتخلو الحياة لنا نحن الذين لا نـــموت.

– إنـــهم يكدحون ليل نهار ليحملوا لنا الحطب فنخلفهم فى الأرض ونسكن نحن الكواكب والنجوم!

ما هذا دأبه ولا حتى خصلة منه ولا قبضة من نوره هو الذى أنساب عنه معناه وأظلمت فيه شمسه وكانت وحشته كهفا فى قاع كهف.

ولولا أنه متسخ برفاته الآن يدبّق شفتيه شحم خروف ويغرق اللبن الأحمر قلبه لقال كل ما لديه ونام بلا أحلام.

(أنا الأعمى الذى لا يرى باطن عينيه والأبله الذى يصدق رأسه ويكذب قلبه ويراهن على صوت لسانه اللحمى)

وتفسّخت قربه العقرب الشمطاء وفرت الحكم الصغيرة فزعة وهى تراقص ذيولها الرشيقة وتعبث ببقايا الحشرات.

وتبعها البوذا زاحفا على يديه وقدميه وهى تطلق عواءً خافتا وتدمدم على الفراغ وكانت لها حظوة خاصة فى قبو العقرب ذاك.
وما كان للبوذا أكثر من فسحة قصيرة لفهم ما يجرى من حوله وهو الذى اعتاد ألا يهب الزمن دورته المعتادة فحضن ذراعيه ونام سريعا فحلم بـــ (الست الوصايا) وهى تخرج من قبة مذهبة لعكازة حكيم أسود الوجه وله ثلاثة أذرع وعلى جبينه وشم لطائر أحدب وما أن فتح شفتيه حتى جاءت (الست الوصايا) وفتحت عينيه فى رأسه وقلبت لحائوها الشحمى وبصقت فيها ست مرات وكان لسانها يقول:
– لا تأكل أكثر من ثلمة رغيف ونم جائعا كجوع الأسد إذ أن أصل الشجاعة الجوع.
– لا تضحك كثيرا ووفر الضحك للموت فالجمجمة دائما مبتسمة.
– هون عليك جميع المصائب فما أنت ألا "أنا" مستعارة ومن المخجل أن تخاف كثيرا على ما لا تملك.
– حتى لا تخاف الألم أسكن فيه.
– لا تسرق إلا نفسك حينها يكون لك حق تقديم الاعتذار.
– قدم المحنة على الطمأنينة فالخطر وحده من يحرك البقاء.
وخيل إليه أنه سمع العقرب العجفاء تقول:
– لكى تكون حرا فإن أى حرية أخرى ستكون خطرا عليك.
وما أن فك ذراعيه وسفح جروحه أمامه حتى عادت إليه جراؤه من الحكمة والتصقت به ولعقت جروحه ومدت العقرب الشمطاء جسدها خارج الكهف الدفين واتخذت من الصحراء سرا جديدا وكاد دواراً قاتلاً أن يعبث برأسه المتألم لولا أن صوت الريح وعده بالذهاب إلى أقصى مدى.

وكان القمر يزين وجهه فى ليل لم يحمله مسئولية الظهور أكثر مما كان.

هو الحكيم الأخير على هذه الأرض وكان له رغم كل شيء.

لا حقَّ أن يكون "لوغـــوسا" ساطعا فحسب بل حق فى الجنون كذلك الجنون الذى لا يدعيه حكيم دون أن يشربه بكامل خلاياه

– مرحى بك أيها الجنون

فلولاك لعقلنا هذا الهراء

وحملنا الأرض بأرجلنا

ولعبنا بالأوهام!

(بلا جنون ما لن ندعى أكثر مما نحن فيه

وما نمنا فى حضن موت دافئ وهما بالصباح)

وما يذكر عنه بعد أنه كان قد نـــام بالرغم من أن الصباحات كانت تنبت فى عينيه بلا انتظار.

بلا عزة كافية ودونما حصانات أزال خطوة عن سرة الأرض وارتضى التيه غزالة غير آمنة والوجع خرجه الثقيل المبارك ونحر الطمأنينة شأنه القادم إليه.

– هنا وهنا حسب نحكم زمام الأرض ونبيح السلوى لعوانس الصحراء دون تقرب إلى أحد ولا طمعًا بالمصالحات.

خصلات جديدة رآها تنمو فى أوهامه العاقرات

وكان يسمع جمال الموسيقى فيكره أنفاسه على التلاشى ويخرس الصمت فى رأسه المتكلم أبدا فقالت له الموسيقا

(الموسيقى صم وبكم وإذا ما تكلمت الموسيقا نسينا الكلام)

وله أكثر من ثأر مع أسلحة اللسان وأفعى الموائد، ثأر من طرف واحد ومن سنة واحدة، ثأرات، حماقات، صغيرة ومكائد هوى

وكانت الموسيقى غيمة هاربة

وعصفورا سفيها

ودمية راقصة بلا عينين

وشاية من اللا أحد وسقطات مطر وعندما يقلب الهواء يديه ويفنيه بداخله الذى تعرى دونه مرات ومرات يرى رقصات فى الضوء تكوّر العالم بعدا ذائبا بلا آفاق

وتنسم الكبرياء بحشرجة وريد

وشد على "أكرة" قلبه توا وهرول وحيدا

وقادته الموسيقا نحو (صائد المآتم) ذاك وهو يعُصّب رأسه حداداً على جنازة لا تخصه ولزمرة من الآبهين لا تعنيه كثيرا وما أن رأى الحكيم بوذا قادما حتى قال جزعا:

– جاء الأبله مجددًا حمامة السعادات

وعمر لنفسه حشوة تبغ أخرى

فنهره البوذا قائلا: بومة فى ظلام غابة.

وحث "صائد المآتم" التراب فى وجه البوذا

وكانت اللعنة تفتك بأعصاب النمل

وله همهمات هذا المُذيل الأقزم الذى لعق فى الطين مخاط الأرض ومات قبل أوانه...

وسكرت حفنة الرماد (هم الذين أباحوا لنا المرور على أطراف عباءاتهم ودلونا على مضجع الماء فما ذنبنا؟) رأى نسوة برءوس فولاذية وسرائر معلقة على الأكتاف ومن كوى غائرة فى الجدران كان هناك زمن أسود يخيم كالدخان الراكد على الموت.

"صائد المآتم" يُعّمرُ التبغ لغلامه المأزوم وهو يدربه على ألا يكون له قلب ولا تكون له أجنحة ففاقت وقاحته الحد فرموه بحجارة من شوك وفلقوا رأسه نصفين فسقطت جنازتهم الأثيرة من قفا بعيرهم الأوحد وأخذوا يجمعون الدماء التى سالت منها بخفاف النسوة وقدور الطعام وخرق النعش.

ذعر الحكيم بوذا فصرخ بالغلام:

– أهرب.

فنفى بذلك عزته وكبرياءه وهدوء أحكامه الستة

وقرر أن يدخل عمر الانتظار وفكر أن يجمع الحصى من الصحراء ليؤشر له طريقا طويلاً

وكان ذلك يعنى الهزيمة أمام القدر.

وكان "صائد المآتم" قد جمع أشلاءه واستحال خطافا مارقا أخذ يفسد على الحكيم هدوءه الأزلى ويصب فى أذنيه صرير القدر ونزعة الفناء

وعلى عتبة صحرائه كم هائل من الحصى التى تشبه الدموع المجمدة وبقايا قشور جلد آدمى.

واشتبك الخطاف بعرض الفراغ وكأنه لا يجيد غير الرقص والابتذال

وما كان للحكيم بعد أى انتصار يذكر...

لعنة الخطاف ولعبة الأفعى وتيه النور هنا، عوانس الأفكار ورعونة الحجر، وبذخٍ من التيه لا يجاريه سؤال

موت يتنفس فى السواقى الملقاة أرضا، موت آخر على ضروع الأشجار

فى القمم الرمادية فى مخابئ النسور وقشرات الثمر

فأعاد النظر إلى صولجانه ووهب نصف حكمته لغواية الأرض والنصف الآخر لتوسل السماء وكانت الحياة قد خرجت له من مؤخرة "كلب شريد" يخر لعابه على فكيه ضعيفا وهزيلا وهذا ما يدعوه إلى أن يكون أكثر زمجرة.

وهذه حياة أخرى تعترض طريقة فى "سرب نـــمل" متوازن ولطيف يدل على بوصلة الذهاب الأبدى ويدغدغ جسد الأرض واثقا من أرجله الشفافة ومصرا على البقاء برأس صغير لا يستوعب ثلمة من فكرة الحياة فيه.

وتبع الحكيم خطوط النمل نحو غاياته الصغيرة وكان مسلوبا من عرشه الثمين وغير قابل للزيادة بل للنقصان فحسب

فشاهد (الأحاجى) تقف نصف عارية فى شرفة الليل وهى تؤمى إليه بإشارات صبيانية وضجيج آدمى يقول:

من أين؟ ولماذا؟ ولمن؟
فتجيب الحروف الميتة حروفا أخرى وكلمات ومعانى وصورا وتوسع اللسان ليغدو صحراء وتوسع الذهن ليغدو سؤالا فى صحراء وما أن حدث الزلزال الأول وخرجت من معدة الأرض القذارات حتى كانت الكلمات تصنع الجمال ثم ترمم الإنسان منه وفيه (ويبتكر الإنسان الضحك) الضحك ثم الرعب والجدران فكانت الأرض حربا على الصحراء وبوذا حربا على بوذا أنه فى مركز الضوء وسط أجنحة الفراشات له من بقاياه كل ما يدين به للرحيق وعلى كتفه مسرات الشرور وكانت أقدامه رحلات برية وغضبات وفرحا زائل هو البوذا الوحيد عيناه ربع الضوء وفمه كهف وهوايته المفضلة معاقرة الغربة وتأجيج الأحقاد وإعادة الاعتبار للكراهية (ما من أحد يكلم نفسه بحب إلا وكان يعنى شخصا آخر) وكان ذلك يعنى موسيقى مرح الأصوات ونشازات متحركة أقل ظهورا فى الظهور وقبسًا من إرادة.
– إنها لى كل هذه البداوات لى وحدى لعقات الدماء وضرب الدفوف للقمر وقتل الإناث برحمة الغيظ والحرص وفاقة السلام هكذا أريد من الحياة حسرات أكثر ومنغصات لا بديل عنها فما أن يأتى الغروب حتى ترضع الحياة نهارها حلما وتــترع الضوء عنا لنفنى قليلا بلا أسماء وتسقط الشمس كرتها بعيدًا مخلفة رمادا جديدا يدب على حافات لا حدود لها... الشمس صحراء ليس فيها بوذا فلا تأتى الحكمة من كوكب منطفئ ولا تنمو الأفكار إلا بعد نسيان الاحتراق الأخير ولا يتكلم المرء إلا بعد أن يتذوق الخرس طويلا وبعد أن توخزه شهوة مؤجلة. ولا تدنو الخطى من فنائه إلا بعجالة اسمها الحب الأحمق.

وكان له ثلث القيلولة المندسة فى هذه البقاع لكى يراهن على الوجد وفيض السعادات وإنبات العروق فى حديقة الجسد فرأى لهب سياط وعروسا ملطخة بالدماء تغالب ثورا رآها بعد حين وهى تقمط نهديها بمشد أبيض وتعض على قفاز أسود لكف رجل مجهول وما أن مرقت بمحاذاة "بوذا" حتى قالت لاهثة بأى جريمة قُدِّر لى الفتك واجبا ولماذا يلطخ باطنى بالدماء من أجل شبع سريع؟

فأجاب:

– خرج الإنسان من جرح ونام فى جرح أصغر ليخرج أما جارحا أو مجروحا.

– وما فحوى ذلك؟

لقد وجدنا أولا فكان السؤال مقطوعا عن إجابة لم تُسمع من فرط صراخنا إذ أخذ رعب الوجود كل الأجوبة واستحال الرعب (أنا) والوجود إلى (آخر) والصراخ إلى (لغة وكلام) حتى تنوع الكلام وتشبه بغزارة المطر فصارت الفنون مؤثرة بقدر حفاظها على روح الصرخة الأولى فى البرية... وأشد الفنون قربا إلى الرعب هو فن السؤال وفن السؤال هو الحكمة.. وأكثر الفنون قربا إلى الحكمة هو فن الكلام ومعدنه الإلهى الشعر يا سيدتى.

– ما شأنى والحكمة وما عزائى بالشعر... فالدماء غزيرة ولا رحمة فيها.

– الحكمة تـــُبقى على الوجود والشعر خلقا من عدم، الأولى تدعنا ننام قليلا أما الشعر فهو الذى يجعلنا نحلم...

– رويدك أيها الحكيم فأنا أبحث عن خلاص من شهوة تهددنى

– وأنا أيضا أبحث عن خلاص آخر من رعب يخلقنى كل يومٍ

– أعنى على تحمل نـــقصى...

– عليك أن تعرفى أن النقص هو اللذة المستديمة والاكتمال هو الشيخوخة بكامل قبحها.

ووصل الثور أخيرا وبيده سوطه الطويل الحارق:

– ما شأنك بحاجتى أيها الفقير؟

– لا شىء أنها لك فخذها وتذكر ألم من يصبح مطلبا تحت آخر وأناءً مثقوبًا لمن يسكب فيه. فما تذكر الثور شيئا وكان سوطه وحده هو الذاكرة وما أن ابتعدت العروس يطاردها الثور والسوط والجنون والمخاض والرغبة الحارقة والدم واللحاء، حتى تذكر بوذا ما أراد أن يقول لها سرا وما رغب فى أن يهمس به فى أذنها الصغيرة...

– على المرأة أن لا تنام... لكى تمنع خطيئة الرجل من الحياة بدونها.

I - تفاحة الغجر

رأيتهم يشربون من البحر فقاعاته الراقصة ويغرفون بملاعقهم الفضية ذات الأكف العريضة شيء من الحصى البربرى وسرطانات بحر، علب صفيح مذهبة، ودرر وسرقات حواس وبرغم أرباح الماء ودكات الطين كانت لهم متقلبات بداوة، وعلامات سعادة فجة وبدءا من شبق الرمال وترهلها العانس أخذوا بتوسل الجسد ممرًا لعذريات النجوم، هاكم هذا الأمل اللاهى وراحة البال وبذاءات لا لون لها

كان بوذا يلاعب النرد فى ذهنه المضُطرب فارسًا مهووسًا بالنبوءات. وجاوره كثيرون حتى أضاعوا عليه مجالسة ظله فى الصحراء وحتى لا يتم القمر ليلته العاشرة... قطعوا من لسانه ثلمة زائدة ودسوها فى فطر الأرض وباركوه بالولع والهم والحرية المذنبة وربتوا على فروة رأسه ومنحوه (تفاحة الغجر) فهام على وجهه خمسة قرون وخمس سنين أصقاع لا اسم لها وهو للتو مترعج من ذيول ذاكرته وغير عابدٍ أحد. وامتنع عن الحكمة والقول وانطباق الألم وكره الطعام والشمس وفراشات الحقل وشكك بالسمو والجد وأقانيم السكون والخشوع فدخل كهوفًا وأطيافًا وأطوار ظلام وقتر على نفسه الخبز والماء وقطع عن مدخل رأسه سبيل الحلم واعتاش على اليقظة ثلاث ليالٍ ونصف إغفاءة وجنب ثعلبًا طواعية نعجة وحذّر امرأة عابرة من مغبة النظر إلى أسفلها طويلاً فذاع

صيته على مقتول "حى" إعاده البوذا لدمه وبصقه حياته وأنثى
باضت بلا ذكر فَــعَّمد بوذا الذكر وقطع سّرة الوليد
وعن ثلة من الحيارى اختلط عليهم الليل بالنهار
فميز لهم عيونهم وزرع قيودا جديدة فى أذهانهم المتعبة
محذرًا أياهم من دوار الحرية قبل أوانها
وحث الخطى أخيرًا خلف أذيال الغجر
تفاحتهم سكرى وعيونهم نجوم مشتعلة
فدفع الطين الذى يشبه الحلزون الدبق بمؤخرة عصاه
وقرفص هيكله العظمى ونشر عباءته العتيقة حول موقد برى
كان يمضغ الأعشاب والظلمة ودخان الأشواك المدعوكة
واعتمر نفسه نورًا إلى نور
وتنفس وعيده ووثق أشلاءه فيه فنبحت إناث الغجر وفاءت
أحداهَنُ بجسدها قلادة مانعة ورقصة هوجاء حول نار شتائية وسمع
"البوذا" صوت نهايات القرون حيث اللذة تحكم والحكم يلتذ والألم
يسمر على الأجسام: ولكى أطارد تفاحة الغجر... كان علىَّ أن
أدارى ظلى بلا معتقدات هذا إذا أتاحت له نفائسه من الأشياء أن
يتخلى
وعندما يبست الريح وكف العويل عن الكلام تلاشى شبق الغجر
وأنبتوا الأعلام الحمر وبدوا كأنهم سفينة مشتتة بلا فنار
وكانت أكفهم تُصَفَقْ كأجنحة الفراشات مخلفين جمرات تضحك فى
منقلاتهم نحاسية
وتضحك بقربها بياضات من اللحم توشيه أذيال الفساتين
كالطواويس
وكان البوذا يلعق شاربيه وهو يْعمِّد سرًا رعاياه فى هذه الأصقاع
وكان كبيرهم شيخا له قرنان وعلى جلده أصباغ موشومة...

حاضنا تفاحته الخضراء بين ذراعيه وإلى جواره ذئب ذليل
وأدخل الغجر جمراتهم فى طعام بارد وقضوا
(حاجاتهم) قرب السهل الآسن ورقصت نساؤهم يكسوهن رماد الليل
فراق للبوذا أن يعرض قلبه على كبيرهم الصامت فهمس له قائلا:
– ما الذى يحزنك أيها الكبير المتوحد؟
فحرك شفتيه الثقيلتين وبصق على النار ورفع عصابته عن عينيه وأجاب:
– الحزن أشبه بطائر يدخل إلى قفص هجره من أجل طائر آخر فلا يجده
وكان هذا الكلام زادا كافيا للبوذا لكيلا يكلمه عن الحكمة فمن دخل قفص الحزن خاسرا لا تعوضه الأفكار عن الإصابات.
وتـــثائب بوذا حاضنا الذئب الذليل وكان يطلق شخيرا كشخير القطط وسحب بوذا روحه من جوفه ودلق لسانه الجاف فى جوف الذئب وتمنى للخليقة مسخا جديدا
وكانت تلك بداية الأكذوبة
وهى ساعة يمنح فيها القلب ضريحه ويقابل بالعزاء

II - السحر العاقر

كل ما هو فادح الثمن وضار كل ما هو ليس بريئا بعد ولا يعززه صباح ولا ترافقه رعونة بائسة هو شىء من الدم الذى نقط فينا بلا استئذان وأعادنا برهة من الضوء والبؤر الغائرة والأكاليل الصامتة إلا أن سياجا لنا هناك فى الباحة الخلفية، أعنى فى زحمة العمر لا يزال شاخصا لم يعتله الزوال بعد.

فما علينا سوى تذوق الدماء وادخار الرماد والانقضاض على غفوة الصاعقة والتهام الوصايا كلها قبل هطول المطر

فجدف البوذا الحكيم على ثلاث:

العقرب الملساء ومنقاش الرماد وإبرة المترل

واستعان على نفسه بثلاث:

رفعة العنكبوت وبولة الطفل وروث البقر

وأهاب بأحدهم قائلا:

– لا تتكئ على جدار فما أدراك كم هو ارتفاعه.

وصرخ بآخر:

– لكل منا سحره العاقر وإذا ما نضب السحر سرقت منا العيون وجفت المشاعر كخلايا الحجر

وهذا محال أن لا تكون للدودة رعشة وللقلب هزة وللحياة مجاهيلها

اصنع المعجزة التى تريك حظك من الكون وقلم أظافر الشر بطفل يلهث على عصفور وادمن البحث فى الحفر الصغيرة فما تسهو عنه الطبيعة يصيره العقل تفوقا

وما لا يعقله كائن هو أن يكون كل شيء غير ضيق بنفسه وليس نرضى به كما كان

ومن السخرية تصور الحياة أكبر من ردائها والاعتقاد بحافات الحياة كالاعتقاد بسماء تأتى من سماء أو كمن يلقى بنفسه فى الماء ليرى قفاه فاضطربت حواسه كحلم كحولى وانتابه أرقٌ من الليل وجاءه السحر والأثر

الرقع والدواة

التعويذة والصخرة

تماثيل ذات أبراج ملوك من ذهب وفضة

دورات هزيع وآفات ذكر للفانين
أيها الضوء والسحر وحمى الذوبان
يا من تأخذ من الوجد صومعته الفريدة وتنثر الطير على الرءوس وتعض التربات الغائرة تحت أقدام السحرة وعرباتهم الغليظة وتطلق غانيات الجن من عروق الشجر وتعبر كالأشباح الخبيثة صوب سرب من الغربان متوكئا على الظلمة وشمعة الحلم، منكشفا على فراغ مهين ومركونا كأى صدفة فى قاع مهجور
أطاحت بى الحيوات وخصتنى الآلام بسخائها الدموى فكان القلب فى جوفى مسلة للعقوبات
وحتى أدفع الألم عن حافاتى
جاء السحر طائرا ليس له أوطان
وحط على أكفانى
فمن لا وطن له لا هَمَ لهُ
أكان ثمة بعد هذا وطن آخر أحُمّلُه عبء التيه
فعاقرته السواقى وكدمات الأشجار وحنت عليه صفصافة منعزلة تسفر إليها العصافير من قيظ الصحراء
فأشارت عليه بأخذ نقيع السحر المصنوع من عجينة الخروع والسكر وقليلا من ماء المطر
واستقبل الشمس عاريا لكى تدس الإرادة خورها فيك
وبريشة الصقر العجوز عليك بها
أدفنها عند شواهد قبور ثلاث متجاورة ثم اعتلى قبر من تحبه
وآتينى بخفاش كبير مدمنٍ على دماء الجثث
وأرمى به عند موضع قدميك
تصبح الأرض كرة فى قدميك

وأمنياتك أفعالا تقرص وتعض كالبعوض على باقى البشر فكان لها ما أرادت
ولم يئن بعد أوان طمأنينة بوذا
وهو الواحد المتوحد المتلاشى، الفتان الذى حابى جميع الكائنات المترملة فى هذه الأرض من فرط وجودها الذى لا يخلق غيره ولا يكرر غير نفسه ولا يتذوق معناه خارج كهف حواسه الزائلة
فخرجت عليه الريح بلسانها الهاذى
وخرجت عليه السماء وأمطرته غبارا
حتى أرتقى (تكية) الساحر "هامان" وصاح به
– إلىَّ يا (هامان) بالورثة والندابين وحاملى مواعين المآتم ونازعى الأحشاء من ظلماتها والمتصدقين بالأعراف الفائضين ماء وجوههم والضاربين بدفوف الوله والناكصين على أعقابهم وحاملى أقنعة ملونة والمندسين فى الخوف وأثره والقابعين فى الجمر والمطولين أيديهم على حصن النساء والمحرفين الكلام حتى طلسمه والنابحين على قمر الليالى ومجيزى أكل القذارات فأن لى عليهم حق الحكمة وشرف البصيرة ووعد الجنون على أن لا أباريهم بشىء فلا أزايد عليهم ولا أرتقى برأسى على أوهامهم الثمينة
فخرج "هامان" من جلد (أبى الحصين) ونفض عنه خرقة صغيرة جرباء وسام ثلاثا فقعد بشرا طويلا له رائحة كلب
فقال للحكيم "بوذا" كلاما ما فهم منه الحكيم إلا جملة كهذه
– أكان أولا لأول أم كان الزمان هو الذى كان؟
لو كنا نعرف ميقات كل شىء وحزمة علله الأولى لما أصبحت الحياة هدنة على ضحية
فأجاب بوذا مقاطعا:

– أعرف كل ما بحوزتك من أعراض وأريد أن أعيرك حقا جديدا للزوال.

– وكيف ذاك؟

–كنت غير ميال للبس ولكنى وجدت الوضوح عاهة لابد منها وإذا ما تربت الجموع على السراب فما فائدة ما تود أن تعرفه فأجاب هامان:

– ما كان ثمة أول للزمان ولا آخر وما كان قبل الزمان زمان يشهده ولا آخر يصمد عليه فَيعمره.. أفبعد هذا تريد رمى السحر بالخطأ.

– ما كنت قلت هذا؟

– فماذا تريد إذن؟

– أردت السحر تحررا من محدودية الحواس لا لعبا بها، سيأتى زمن قريب تكون فيه نيات الإنسان سياطة وفيها يختفى الإنسان ليغدو شبحا ضوئيا

فضحكت أشباح ورمت الحجارة على تكية "بوذا" وعوت الكلاب على نجوم عينيه وأطلقت البومة السوداء نعيبها واختفى بلمح البصر "بوذا" ومن معه..

فكانت سقطة على صخرة ذات أدراج فآلمت ظهره وأدمت كتفيه..

واستغرقه السحر حتى استحال حلما.. وهزه الحلم حتى بدد الصحو فيه.. ونشرت له ظلمة أزلية عششت فى باطن عينيه حتى شاهد خواطره تنجب قبعات وأرانب تفرخ نفسها على الأطباق الزجاجية.. وهو يمتص الألوان ويطارد الميوعة والليونة التى حطت على الأشياء من حوله.

فتثاءب كهلا واتكأ على يمينه وهو يبصر الأرض سمراء والأشجار زرقاء ورقعة من السماء لا لون لها تخيط لسانًا عريضًا لا حاقات فيه فقطف ورقة ميتة علقت بشوكة ومضغها فنـــزت ملحا وأعاد طعم الورقة إليه.. إحساسه بالمألوف

فأنطق الورقة الميتة قائلا:

– من الأشجار وحدها تخرج الحياة استحالاتها

وتسخر من فصيلة اللحوم ذات الأسباب والمسببات

من كانت له حظوة ما.. فإن فيه شجرة يستريح فيها وتلعقه خلايا الأرض من الباطن العميق ويجئ فى طبعه عذوبة الفراشة وبشرة الدودة ومذاق الثمرة.

وكان يود القول: أنا

لولا أن لفظة كهذه تقدم حشوة العدم عليه

وتسلب منه حق الوجود كالسحر

على شفتى حفرة من وهم أصلها ماء وحافاتها ماء

وجسرها الأبدى ملمس البحر ونصفه صحراء

صحراء أشد سرابا من سحر تصنعه الأصابع المخادعة

أيها السحرة.. الأقذاذ

المصير هو اللعب بأداة واحدة كأنها الدخول إلى الذهاب من بوابة أثر أخرى ومن مسير إلى مسير يصبح السحر اغترابا.

III - القمر الأصفر

"لا أجواء ولا سماء وراء الأجواء..

وماذا عساها تنطوى عليه؟ أين كانت

وأين قرارها؟ أهى هاوية الماء التى ليس لها من قرار؟"

النشيد المرهوب

ألق آخر جديد يزعق على الفراغ ويمنح عشبة الخلود فسحة المرور على "لا أحد" وكان الحكيم "بوذا" يخرج لسانه من قدميه وينضو عن نفسه عرق الطريق فعابثته أطوار الكائنات.

ودقت له آذان شحوبه فأخبر نفسه قائلا:

– ما العدو؟ أنه من يغرس فيك الحياة نزقا ثم يساعدك على أن تصدق بأنها حياتك؟

هو ما ينهال عليك بالأخلاق والدسائس ثم يفتح لك جحرا فى الأرض لتدخل وحدك عاريا؟

وهو الذى يحصنك طويلا لتكون سلما لا طائرا.

من يطعمك لتنام وإذا نمت نقص عقلك

وشد البوذا على عقبيه وصعد أعجوبته (الخضراء) حيث الحشائش الآسنة تغزو بقعا من قفا صحرائه ونال من الوحشة الباردة، الهجينة بالنظر دوما إلى أمام.. ولعق ينبوع ماء فى حافة "شرخ" وليد فى هذه البقاع. واصغى إلى هوس "السكون" وكان الفراغ يرفرف مذبوحا من عبث الاتجاهات.

عندما نامت الكراهية على ركبتيه واستحالت أشواك الصحراء الناتئة إلى غيوم تدب زعانفها قريبا من أنفه الجاف وكان عليه أن يصل إلى "الطوطم الجريح" قبل حلول الظلام.

وأن يقول كلمته بالمخلوقات السائلة وهى تنفض أغشيتها اللزجة وتتخلص من الحقائق والقشور.

والمسير يعنى عدم الرضى.. الحنق على الصمت المفزع الذى حمل مسيرة قرون من الثرثرة ولم ينضب معينه

ولكى لا يُغمَّس رحيقه برماد التنور عليه برؤية "القمر الأصفر" ليقول أخيرا ما عليه أن يقوله..
وها هو البوذا يصرخ فى قاع جوفه مسلما اللسان إلى بركة القلب
الحكمة نقصان يَكبُر.
والشجاعة حكمة عمياء.
والموت وهم لا يمنحنا نفسه مرتين.
عَلَتْ أصوات طبول تقرع وترجف حولها أصوات جماعات
والريح تنصت كعجوز مسالمة بخيلة فى عطائها
وتفوهت الأشجار بكلام الصخور التى دلت عليها
فصرخ البوذا حانقًا..
– ما تَبقى لا أراهن عليه.. وأنا أسمع العالم يطن طنين الذباب وقد قتل أبناءه واحتضن فنونه رقصا على خراب.
– الوحدة عرس جماعى كل الحاضرين فيها أشد وحشة من الغياب.
وكانت الدفوف تفلت من أعصابها وهى ترمى الحياة بقلة الراحة فيلتفت الحكيم بوذا إلى زهرة هناك.. اغتالها العبث والضجيج:
– دع الجمال يبكى فالدموع مهما كانت أسبابها ترمم الجمال قبل انهياره.
ورسم فى الدخان صورة قمر أصفر إلى جانبه "عجل" يأكل غيمة سمينة..
وعصر بكفيه "الطوطم الجريح" الذى كان واقفا ممتلئا بالخرق والبراز والشهوة المسكرة وعلى رأسه خوذة محارب يميل فكه إلى اليسار قليلا وهو شبه مبتسم وله مسحة "أجرب" أخبروه بذلك توا..
وما أن سرق "البوذا" قمره الأصفر العزيز حتى احترقت كفاه وتحولت عيناه إلى مرايا تخرج منها.. القوافل والأسئلة والخسارات.

وهمس لنفسه قائلا:
– ما من أحد هنا.. فامشِ بجسمك وكأنك لا أحد أنت الآخر.

IV - القدر والعصفور

ما أن استحال الحكيم بوذا إلى ساحر عاقر إذ أخذ منه طيفه وعدته من سكينة الحلم حتى قرر الالتحاق بسكان مدينة (حانوط) وتلك مسافة عشرة أوهام من موقع مدينة (الله معنا) على مشارف بركان (الشمس النائمة) إذ يلتقط البصر علامة خشبية عتيقة نقش عليها (هنا مدينة حانوط وتبا لكم)

وما أن تخطى شتيمته حتى شاهد الرمال كلها بيضاء.. إذ يبدو أن الملح قد أعلن قيامته هنا.

وكان هناك الآلاف من الرجال منتشرين على السهول وهم يحصون "حبات الملح" بهمة لا تُجارى.. وقد بدى على "بوذا" الذهول وهو لا يفهم ما يجرى هنا، وقد اعترضه سؤال الأسئلة.. سؤال لا أمل للإجابة فيه سؤال لا يفلح العقل فى إقصائه أو التنصل منه أو أكل نصفه الطازج.

ذاك هو سؤال الجنون؟

يمرق السؤال بوهمه اللذيذ وكأنه طيف يخلقه طيف أو حلم يشربه حلم.

لكى أمنحك أيها الجنون مرتبة القدر اليتيم وأبقيك شاهدة لا شاهدة أكبر منها تدل على كوكبنا الأرضى لتعيد إليه معناه المفقود.

إليّ بالسؤال والحيرة ودوران الرءوس، إليّ بالوهم الضاحك والشريعة الناقصة ودفة السفينة السائبة.

وهناك منذ سالف الزمان أنثى من البط تشق بيتا جديدا وتفتح للفجر أخطاء مشعة.. أنها "العادة الناعسة" أيها الحكيم بوذا.
نعم.. هى العادة التى تطلق أحكامها الجائرة على سكان "مدينة حانوط".
وقامر بوذا بجنائنه ولطم على رأسه إيمانا بالخسارات.
وبينما هو يسير تسبقه عصاه النحيلة ويتبعه ظله على الأرض حنت على رأسه غيمة فرَّت من الشمس كإنها خصلة بيضاء ساء بريقها بينما بوذا يستلهم ما لديه فخانه لسانه ثلاث مرات.. وهو يشعر بحرقة الملح فى صحراء قدميه والمجانين يحصون مملكة الملح طمعا بالانتظارات..
فحط "الجنون" جناحيه على كتف صاعقة وأدار ظهره للحقيقة.
وكانت قد عبأت نفسها بالتوسلات وللبوذا صلاة قربى لا حصر لها مع هذه "المسلات" التى صنعت نفسها بلا آلهة.. مع هذه الرءوس الحليقة، ومع الأجساد التى خففت من أحمالها وشاءت أن يكون خطرها لا هوادة فيه، وسلامها يتآكل من أثر رحلات الجنون فى ممرات العقل وسقطاته التى لابد منها.
وما أن حاذ "البوذا" المجهد المألوم مسلة عابرة نصبت نفسها تحت قدميه حتى فر من حصار الأرض وشبق (الأسفل) المبذول.
وطارت عيناه نحو السماء وداهمته المناجاة كما لو أنها وحشة تداهم طفل شريد فأسفرت عيناه عن جمرة فى لسانه فاندلق قائلا:
– ليس لى سواك يا (آتيه)(١)، أيتها النجمة الأم يا مسلة جميع الآلهة ونعمة الصمت فى الرءوس، آتيه.. أشعل لك كل آياتى

(١) آتيه: هى آلهة الجنون عند الأغريق.

الزائلة.. مرات وأقدم قرابينى بلا أثمان، لك وحدك أردد القسم الأعظم
وأبلل سروالى بالمشيئات، أعقر لك..
ألف قمر يسافر وألف نيزك فوضوى يمرق نيرانه على الأكوان.
وأشد شعر ملايين العقول التى تيبست وهى تحصى دروب الصح والخطأ..
أحرُقُ لك أعشاب السحرة وجند المتجبرين وأسميك.. حرية فلا ألتفت ولا أتردد.. لا أخاف ولا أمرض لا أنام ولا أوقظ..
فالحرية ما هى ألا جنون يتكبر.
ولا حرية أكبر من الجنون فى الحرية.
لا هوس.. لا بقاء.
لا معنى أكثر انطباعًا وأشد بقاء منك.. يا آتيه.
من جنون يتحدى..
مـــن مجنون يبتسم مـــنا فحكمة العقل لا شـــىء إزاء صوته الحكيم / الأوحد.
أما الجنون فلا يحكمه العقل ولا يتحكم فيه الموت.
فالموت لا يرهب إلا من يعقله فمن يدمن على الوجود يأسره أبدا.
ومن فجوة العدم جاء الجنون إلى العقل ليحرره
ويحتفل به
ويطلقه من عقاله.
طوبى للمجانين لأن مسلاتهم ماء يجرى ويغسل المخاوف من قلوب البشر..
طوبى للجنون لأنه يفتح البوابات الدائرية للأرض.
ويمشى بالرأس خارج حدود الأرض برغم أن الأجسام فوقها.
وما أن وصل بوذا إلى الهاوية حتى صاحت به "إلهة البقاء":

– لا تذهب بعيدا.
فأجاب:
– بل سأذهب فلقد أخذت من الجنون كل ما ينقصنى من الحرية..
لا يفلح العمر فى قطف ثماره قبل هطول المطر.
وما أن رأى صحراءه تعدو أمامه حتى صرخ على السراب الذى كحل عينيه:
– أنا عزة هذه الصحراء وأكليل الشوك والملح.
هذا هو التاج الوحيد الذى لم أرثه من رحم نام وتنفس بآخرين.
وهذا الابن عارى وثلمتى ونصفى الجائع لأكلى وهو دليل القدر علىّ.
لكم خرجت من نفسى ثأرا من الأعماق ولكم وددت أن أصيِّر الريح صوتا للفناء وأحول الأحجار إلى أسماك صلدة وأن آكل التراب رغيفا نيئا لا لشيء إلا لأعجن الأسطورة بالحرية وأعترض على الأسياد.
كل ما هو مجهول واقعى.
وكل ما هو واقعى لا نفع فيه.
وصرخ "بوذا" الآخر غاضبا وهو ينسلخ عن عصا "بوذا" دون أن يعرف "بوذا الآخر" ما معنى بوذا فى هذه المتاهات.
وكاد "بوذا" أن يتعرف على "بوذا الآخر" لولا حزمة الدخان الذى طار من أنفه وبصق نفسه على عينيه.
وجَنَت الحقيقة على الأسطورة وكانت الحياة كلها فيما مضى ركضا على حبل وهرولة فى الظلام فلماذا هى الآن تمشى مشروطة بالآخرين.
وسمع الحكيم "بوذا" شذرة "خراب" مرت من أمامه متوثبة وهى تقول:

– بلا خرافات تفقد الحقيقة طعمها فالوهم ملح الرءوس والأكذوبة أرجوحة الحب والحلم يؤجل الكراهية.

وقال "بوذا" لنفسه موافقا:

– نحن الآن فى المهزلة كلها.

وفى مسلة الجنون كتب العقل ما همه.. فأجاب:

– عليك بالجنون.. كلما اشتدت ضائقة الحياة..

فالنور المقبل نحوك.. يجعل العتمة فيك لا محالة، نوعًا آخر من السماء.

– ما من عقل قابل للأجوبة ولكل سؤال غير مناسب إجابة مناسبة.

– دعه يتكلم، دعه يصرخ.. فإذا ما صمت أصبح الكلام إساءة إليه والصمت كذلك.

بدأ العالم فارغا إلا من إله.. لكى نعقل ذلك الإله لابد من آلهة.. أخرى ترتـــقى إليه أما إذا كنا لازلنا نعتقد بالعالم وحده مثل ولادةٍ مستحيلة أو شمس فى جيب صياد.

فلابد من أنصاف آلهة يعترضون عليه.

– فى بداية العالم كانت هناك الكلمة وفى النهايات كلمة للبداية

– من كان منكم بلا معنى فليسأل عن الحياة؟

– القبور أجساد والمشيعون موتى يتحركون.

– ما من جنون أكثر من العقل عندما يدعى لنفسه كل شيء.

وفى حاشية المسلة كتب الحكيم المبتهج ما معناه:

العقل كل ذاكرته وجود والجنون كل ما فيه عدم.

وليس مناسبا بعد أن نجزئ الذاكرة ونمشى بهدوء بلا ذاكرة، تشى بمساقط الظلال.

وما أن قرأت عليه المسلة ذلك.. حتى حط بوذا فى بوذا وصاحبه من جديد.. وقد استحالت مملكة – الملح إلى جنة آمنة تخرج منها

الأحلام والشهب والنيازك وتطاردها الشياطين والمَردة وجبابرة الظلام.. وكانت عينا البوذا ممرات هواء وشفتاه صلاة فأجاب:
– حلم الإله بالإنسان وحلم الإنسان بالإله فكان الحلم سيدهما!
وانبجس الظلام من كوة فى الحلم وحلم طويلا..
فجاءت الأرض معلقة فى الفراغ..
وقبل أن يحمل الإنسان الأرض على كتفيه
وقبل أن تصبح السماء موطن الآلهة
كان النسيان هو ذاكرة الأرض
والسماء صفحة مدونة بالعلامات..
فنامت الذاكرة فى أحضانها العلوية وسقط المطر للمرة الأولى على هيئة دموع الله على الأرض فأصبح الألم أمواجا من الأمطار..
فقال البوذا قبل أن يغرق بالألم:
– كلما تُطفأ الحياة بالليل تَذكَّر أن هذا يعنى أن الظلام هو الوحدة والليل هو سريرها الذى لا يتسع لآخر فلم الانتظار أكثر؟
أجمع الرماد لاحتراق جديد.
ولم يتسع موضع قدمه إلا لفانوس نفطى صدئ علامة الجرادة حمله أحد "الأقزام" أمامه.
كانت خيمته من سعف النخيل.
وتقدمت إليه مليكة إحدى القبائل ذات الصيت العريق...
وأزاحت ذيل الستارة ومثلت بين يديه
وفاهت بقول لا علم لبوذا فيه:
فأفهمته ما تريد فأجاب بلا حماسة:
– لا بدائية هناك بل تفاوت فى المشاعر وعطالة فى التاريخ فنعق القزم الدميم قائلا:
– عليك بالكلمات كلها.. فالريح وحدها تملأ الآذان

ومهمة الكلام أن يزيح الهواء من الآذان
ويخون فطرة الطبيعة ويحول البشر إلى عبيد اللسان بلا مقابل
صريح.. أيها الأب.
– أفضل أن لا أدس الفهم فى رأسها فأجعلهاكسيحة أيها الغلام.
فرقصت المليكة، ورقصت خلفها سهام ساخنة شديدة اللزوجة
وبدأت الحياة ترقص من فراغ الكلام وتموء فى أفواه الآخرين وقد
أخذت العصافير تطير من رأسه وتعود إليه مخترقة فتحات منخريه
وممرات أذنيه وكهف فكيه...
وقد تفادى سور من الأشواك حط هناك علامة التروح عن مدينة
"حانوط" وأخذ "البوذا" يتهجى:
يستأصل الزائل برغم تورد وجنتيه.
ومثل صقر طاش بصره تحنو عليه المسافات والأحراش وكذلك
قلب هذه الغيمة حيث نرى حافات لمرآة عالمنا هذا ومراعى
وصبيانًا
سأرى حينها وكأنى أسمع ضجيج النجوم ولغط الليل ورسمه وجلافة
وحدته.
ما من جريح ليس له شاطئ.
ما من أكتراثات تعيق مزمارى عن الذبح ولا تمنع شفتى عن
امتصاص خيول الدخان وقبابه المصروعة.
أنى لا أقول
بل أتهجى
وكأنى أقاتل أغنية أو ما يشبه زعنفة لأمرأة
أنى لا أقول
بل أتهجى
وكأنى أمرق على جلدهم وأسرهم ذكرى جديدة لذات اللغز

فلا يتسع العالم لإبرتى وخطوتى بعد لم تصل إلى ياقة هيكلى المدهون
بالسخام وهو يعتز بحكمته
وأنى لأراها تتغذى على الوريد المر
ثغاؤها
وعزة ماضيها المبتسم، الذليل طواعية
مهرجاناتها
من أرامل غشاشات
وسهرات تلعق فى كؤوس من طين ثدى الماشية
صرخاتها
تحت سياط البارود
وهى تصمت على هيئة شواهد وأوراق وتماثيل أحبار
لا لم أرها بعد
بل هى الآن حبلى بالعماء
وعلى قلادتها العاجية رائحة أفعى الخيزران
أقوام من "الناطحين" صخورهم أقلام
وكهوفهم عادات نسيان
وحضور بل هو نسيان أكثر؟!
ثم أنهم أنطقوه.. بوذا
وأحرقوا لغتهم على سطور جلده الأسمر المسعور
فمن لى غيرهم.. أبعد
وبأى شروق أعيد الشمس إلى رشدها
سوف أعتذر عن القول
أننى أتهجى
فهالت عليه (منيته) بهمة الثعلب وهدوء الأسد وكسل الجمل

وهو ينقل خـــفـــّهُ المفروش وقد زينت له فصوله بأقراط من وعود الصبايا
وهشت وبشت وزرعت له وتدا مغروسا فى أمعاء الأرض... وكانت الطمأنينة تسجد عند أقدام أشباحهم.
القرية لا مبتسم فيها وهى لا شىء..
إنها مفترق هواء.
فصعق (البوذا) الحكيم وخلع ذاكرته المسالمة وزفر على وتد الثبات وبدا كأنه يأخذ أنفاسه من كلامه وكانت الكائنات كلها مشوشة حين أخذ يقول:
– ما من معنى لهذه السويعات التى يلهو بها القدر بأظفاره، ثم سرعان ما جاءت ساعة القدر الدفين.

ما الموت إلا سرنا الرهيب، هو شبح فينا
يساعدنا على الذهاب أبعد من الحياة.
ترى من منا ير فض الذهاب إلى أرضه الواسعة إذ ما عرف حافات غربته ونهاية رحلته...
أنا لا أفضل إلاَّ ذلك الرحيل
وسأترك خلفى نفايات المائدة...
سأقول لكم كلمة لا يسقطها الضوء ولا العتمة
ولا تسخر منها الأفواه أو تزيغ عنها القلوب.
وهمت (المنية) أن تقاطعه فأجاب (بوذا) مستدركا:
– أعرف ما الذى تنوين البحث عنه.
فالموت هو حلمنا اليائس أقل ما فى يقظته ظلام وما بعده ليس سوى فوضى وحزمة مشاعر سكرى وعادة صالحة للأكل اسمها الأرض.. وهى ذهاب!
وكعادة كل (المنايا) فى دجل الأفئدة قفزت صغارها على الأشباح تحثها على دق الطبول وضرب أوتاد الجليد، ففعلوا وجلبوا (ماء الشعير) وفرقوه بأقداح من خشب وقصب وكان زادهم (تمرا مالحا).
فعرف (بوذا) أن الأشباح ألفته وآنست رائحته وصارت تتودد إليه وترقص عند قدميه العاريتين.
ومرق شبح (بوذا) بأذنين بارزتين وأنف منقارى ورأس أصلع كصخرة فى صحراء وفى أسنانه شوكة طويلة ملساء وحادة يعض

عليها فتخرج صوت بأزيز وسرعان ما قذف بسؤاله الثعبانى بأذن البوذا:

– ما الألم؟

– أنه جرح جائع.. ما إن ينام حتى يترف دما.

– ما الألم؟

– إنه رغبة فى الحياة وإذا ما ماتت الرغبة انسحبت الحياة تتابع آلامها فى مكان آخر.

– ما الألم؟

– كل ما يساعدنا على احتماله منفردين.. لا ألم لا تحمل وبلا تحمل نعرض البقاء إلى الزوال بأول صرخة.

سمعت المنية كلام بوذا وشبحه الملحاح، فأجابت:

– بالموت وحده ينقذ الإنسان نفسه من الألم.

فشعر (بوذا) أنه أخِذ على حين غره فابتسم قائلا:

– قدر على الإنسان أن يأخذ الألم على عاتقه ففضل النسيان ولولا الموت لما عاد الإنسان إلى رشده فرفع الألم مؤقتا على كتفيه ولازال الإنسان يقدم الألم على الموت وهو يعرف مدى المرارة التى تسليه وما نوع الأحذية التى يرتديها مشيًا فوق بركان.

لا أهمية ذلك أن الحياة تفرض علينا احتمال أثقالها... من أجل أن لا يكون هناك موت واحد ومشترك... دعونى أخبركم بسر الألم فى الماء وحفاوة الموت فى الطين فلولا الحياة لما بقى فى عالمنا هذا سوى (ألم) يبحث عن (إنسان) من أجل أن يكون (لنا) صوتٌ واحدٌ يطفأ فيه (الألم) ويمحو (الإنسان) وتبقى الحياة سفينة فارغة تجوب المتاهات.

وكان شبح بوذا ينظرُ إليه بعينٍ سرمدية واحدة وقد (وشم) على ساعده بالأزرق (البوذا لا يموتً فكان على الموت وحده أن يصدق

حياته). وغنّت "الأشباح" وهى تسرق من كل نجمة غنيمة وتكور كُرات الرمل وتقذف الأوهام العارية التى حطت متحفزة للبقاء وطار "الصواب" بهيئة "غراب" أخرس يلوى عنقه جزعًا ويفتح منقار رقبته نابحًا على الظلمة فحث بوذا أشباحه ملوحًا بعصاه صوب (الغراب) الأخرق.

وكانت الأوهام متناثرة مثل كسرات جمر وشب الحريق فى أعشاش الظلمة وتراجعت (المنية) وهى تلعن كل عشق وتكيل اللعنات لكل حكمة قدر لها أن تكون جمالا.

وكان على شبح بوذا أن لا يطير وأن يستميح حكمة بوذا عذرا وأن يستأذنه بالدخول فيه فبادره (بوذا) قائلا:

– أنت شوكتى وقداسى وتوأم جنونى.

ولا بأس أن تكون الوجع السرمدى الذى يعظ روحى ويبعد عنى كل غفلة ولذة ونوم ويسقط أقنعة العادة عن حواسى.

فلابد لكل منا شبح يربيه ويبث فيه ضده ويشاكس من خلاله كل طمأنينة زائفة.

فكان له ما أراد وتبعه شبحه المدلل بهدوء الضحية، والتفت إليه بوذا موافقا وقال له:

– اتبعنى لكى تتعبنى وإذا ما رأيتنى ناسيا فأرمنى بحجر.

فكان له ما أراد.

الاستنارة الصغرى

جاءت إطلالته هذه بقدوم المذنب المشلول ملفوظا من السماء نورا مصعوقا ومن الأرض مطرودا فى صحرائه بوذا وما فيه.. وقد شاءت أن تكون أحواله بعد صخب الجهات عليه وانكسارات لا تضاهى وبعد أن عابت عليه (المنية) بهاءه واشترط عليه السحر أن يكون عقيمًا وعرقلت الأفاعى عصاه المديدة وعاثت العقرب الشمطاء بلحيته وأشبعته امتهانا فما كان منه سوى أن يمد ظله بعيدا وفى طيف رأسه شجرة مهجورة تأبنها الحشرات الضارة، وهى لا ترتوى من مطر السماء ولا من دليل إليها غير المسير، همَّ شبحه أن يشير عليه فندت من بوذا الحكيم إشارة حاسمة أنْ "لا".

فتذكر الشبح ما قاله له من قبل فأظهر حزمًا أكثر على إقلاق راحته إلا أن (النيزك المشلول) مرق قربه من بعيد، وقد تطايرت الحشرات فزعة واختبأت الأشواك فى باطن الأرض وهرولت الحجارة هاربة وصعقت القبرات واستحالت فحما.. وحتى الشبح نفسه دفن ظله فى بئرٍ مجاورة، وحطت على بوذا شجاعة الأولين وفراستهم العالية وتحولَ قلبه إلى جبل عتيد وعيناه إلى نجوم شامخة، وامتد لسانه كالموجة العصية لتقول بصخب ما بعده صخب.

– أغرب عن وجهى أيها النيزك الأخرق فما أظنك إلا أنك قد ضللت طريقك.. كل ما فى هذه الأصقاع ملكى وليس ناصحٌ لك بعد أن تقطع السيل عن مجراه، وقل لمن أشار عليك بذلك.. أن الأرض لازالت بخير.

لطالما أن الحياة توهب نفسها بلا أثمان وأن الإنسان مازال موجودًا هنا.. فدعه وشأنه هذا سيكبر ذات دهر ليعرف ما هو معناه!
وتظاهر النيزك المشلول بأنه إنما هبط ليعلو، وللم أطراف شعاعه وفر مبتعدا يعتذر وما أن رأى بوذا ذلك حتى دخل فى (الاستنارة الصغرى) ولم يستطع حتى شبحه الخاص أن يراه.. وكان ذلك يعنى "انبساط الإرادة المدماة، وتلويحة الصقر الأكبر، وشارة الولوج بالنور الفتان".
وكان اللسان (يهذى).
ما من شارات تعبر دون أن تشير إلى (المعنى).
النجوم التى لا تحصى وحبات العدس فى المجرشة.
نخيل تلك البوادى وحجارة الفُرس، سرب القطا وعدد رموش الوردة ورمال الصحراء، وحصى الشواطئ والأحمر، والأسود، والأصفر والبياض الممتد المتضامن.. فى كل شارة عبارة وفى كل عبارة منارة، أيها القادم اتبعنى..
وبانت أمام وجهته شجرته المرجوة فكز على أسنانه ومضغ لسانه وأشار بعصاه وأخبر نفسه بالسر الأبكم:
– تحت هذه الشجرة اللقيطة وفى دفئها الغريب ستكون روحى فى النور ورأسى فى السماء.
فرحت به الشجرة اللقيطة وقالت له غير متحفظة:
– الجهد هو الإرادة المدماة
والنيزك المشلول هو الصقر الأكبر.
وأنا هى شارة الولوج فى النور الفتان.
فما كان من بوذا إلا أن مسد لحيته وعرف أنه دخل دهرًا جديدا.. وما أن همّ بأن يدخل موكب النوم حتى قفز الشبح بين جفنيه وعكر صفوه قائلا:

– ألست أنت القائل إن الروح لا تستريح وأن الجسد ليس كل حدودها؟
– نعم هذا صحيح!
فما نفع هذا وأنا أراك تستملح الوثوق بالظل البارد وتترك عصاك تنام بجوارك وكأنك استنفذت الصحراء كلها.
فعصرَ (بوذا) يديه وهمس للشبح الذى كان يسيل فى حيزه المجاور:
– سوف ترى يا صاحبى أن المشقة كلها فى أن تعرف لا فيما تقول.
والمعرفة هى تكافؤ مشدود بين النقائض، وإذا ما عرف الإنسان حقا فيتحول رأسه من بيضوى ومستطيل قليلا إلى دائرى، محكم تماما.
وهنا، قرب هذه الشجرة اللقيطة سأتعرف على أرواح آخرين.
فخرج من السراب البعيد، رهبان يهرولون وقد بدوا كالذاهبين إلى أمر جلل.
فأرسل بوذا شبحه المطيع ليدلهم عليه.. قبل أن يتواروا فى الأبعاد.
فقدموا عليه وقد أدخل منظر بوذا تحت الشجرة الطمأنينة إلى قلوبهم.
– أنت بوذا.. كما نراك تحت الشجرة اللقيطة.
– نعم، أنا بوذا وهذه كما ترون شجرة بجوارى.
فراقهم القول بوجل الصحراء فأفصحوا متسائلين:
– لقد سمعنا بك دون أن نراك فقل لنا ما معنى صحرائك؟
– الشمس لا تتكلم بل تظهر لتجيب.
– نحن قدِمـــنا من زمن صلب فيه أحدهم لأنه برهن على خلاصه بصلبه.
– ما الصَّلب؟
– أنه تعريض الجسد للجروح وجعل الموت ينتابه ببطء.
الصَّلب هو تذوق الموت بكامل زمنه.

إنه يا سيدى تعليق جسد حى عامر بألواح ذات مسامير لنراه وهو يموت عارفا بما سيلقاه.

استغرب بوذا قولا كهذا وجذب عصاه لتعينه على الوقوف. وأرسل نظره بعيدًا وفكر بالمصير الذى لاقاه حكيم آخر أكثر شجاعة.. حكيم يتذوق حكمته فى الموت وعرف أن هذا كان قربانا وكانت دماؤه دموعا أشد خيرا من المطر.

وما أن تنفس الغرباء كلامه.. حتى شاء أن يقول:

– ما من شك فى أنه حى، وسيبقى حيا، فنحن كذلك نفوس مضيئة أبدا، مصلوبة على هياكلنا العظمية أرواحا خالدة.

واستأذن لإدارة وجهه إلى ناحية أخرى فانصرفوا عنه..

ودخل إلى ظله تحت الشجرة اللقيطة وقد حصل على سوء آخر رماه به البشر القساة.

ما بال الإنسان يلقى بنفسه إلى الجور والطغيان؟

ارتقت الكآبة وجه الحكيم بوذا، وانتشرت على لحيته البيضاء وما كادت تلعق شفتيه حتى بصقها خارجا فانزوت قاعدة قبالته، وخاطبته بروح مسالمة ولم يكن بوذا رائق المزاج بعد.

– ما من حكمة لا كآبة فيها فماذا فعلت بى والأجدر بك أن تتوجنى على رأسك تاجا لحكمتك الحزينة!

– وسرعان ما زفر البوذا الهواء بصوت مسموع وأجاب مصوبا:

– الحكمة مسرة غير آبهة والأفكار المضيئة تعين الإنسان على الضحك.

ويا لكثرة ما كانت لى ساعات تلقينى بها الحكمة أرضا متمرغًا فى التراب من شدة الضحك.

نعم هذا ما أراه كلما ازداد الإنسان حكمة عاد طفلا كبيرا لا يكاد يقع بصره على شيء فى هذا العالم إلا أثار دهشته وفرح به.

فقاطعته الكآبة وهى غاضبة:

– والموت واليأس والفقدان؟

– إنها حالات حياة أخرى وفسحات مضاعفة للوجود فى معناه.. ما حزنتُ على أن الموت قادم ولا شعرت باليأس من شمس مرة أخرى. أما الفقدان فهو مرارة تعزيها الذكريات فجفلت (الكآبة) وانكمشت على نفسها وما أن صارت بحجم دودة حتى حط عليها غراب أسود والتهمها ثم طار، ومنذ ذلك الوقت بـــُـــحَّ صوت الغراب وصار رمزا للحزن والكآبة وشؤم السبل لعامة الناس.

وكبُرت فى نفسه الغبطة وهى داء الحكمة وسكينة العظماء. حتى طارت نفسه فيه وسَمَت روحه وفاضت سماءً بيضاء سرعان ما هزت جذور الشجرة اللقيطة ورطبت أغصانها وصار ثمرها طيورا وعصافير.. فأغمض بوذا الوحيد عينيه ونظم أنفاسه بوتيرة بطيئة، وكان هذا يعنى نيرفـــانـــا.

ضوء داخلى يتكثر، يفيض عن إنائه، ضوء محبب، طيع، وهو يهذب أشلائه فى فراغ داخلى مهيب، فيصبح معدا لأن يملى ذاته بذاته حيث يحتضن الصمت الرابض، الراكد والمتماهى مع أنفاسه الرتيبة، فيكون الضوء صامتا والصمت مضيئا، وأحيانًا يأخذ الضوء من الصمت عفته وورعه الأبدى فيصبح الضوء لا صوت له، تماما كما لو أنه يضىء من كثرة الصمت الذى يدب فيه... فتأتى الروح محمولة على أجنحة الضوء والصمت والروح وحشة هائمة كانت، قبل أن يحكم عليها الوجود بالسجن المؤقت فى سلاسل الأجساد ودواخل الكائنات، وها هى الآن، تفترش سماء الوحدة المطلقة فى صحراء الضوء والظلمة حيث تتساقط الأسئلة وتغلق نوافذها ويصلب العقل هذيانه ويجذب أجنحته ليغادر مشهد الكون هناك شعلة من الضوء وبحر من الصمت يغرق ذلك القلب المطمئن الذى سرح نبضاته واعتكف فى مهاده هادئا وشبه ميت، لذته نعاسه وزاده التكشف النابض الوديع، ما من مشاغل تعبث به، ما من نزوعات شريرة تدفعه إلى اللهاث أو تشتت هواه، صمتٌ طاهر، وضوء برّىٍّ يشف عن معناه وكأنه موكب ثلجى، ثم أن الضوء كان يسيل، والصمت هواء أخرس، ما من متعة تنافس هذه المتعة، ما من كيان يقاسم هذا الكيان، اللاكيان الذى نَشَّفُه الضوء ولحسه الصمت حتى استحال إلى فراغ يتنفس، فراغ حىّ يبعث على السرور ونحن ندخل فيه دون أن نتحرك، ندخل زاحفين بمعنى الزحف أو نسيل فيه أو لعلنا ندخل بمعنى منفتحين عليه ونتكشف

عليه داخليا وعمقيا... فى ظل أملس، بارد ومكتف بالهدوء، ظل هو ضوء كذلك وصمت منجمد، سرعان ما يتمطى فينا ويكبر حجمه ليمد لسانه متثائبا فى فم الصمت ثم يمد أطرافه ليتحسس الضوء ويجذبه إليه بحركة مسالمة روحية، حتى أن الضوء نفسه شعر بمدى حياء الظل فمال عليه وهو يفور صمتا، فلثم أطرافه وشع فيه حتى بانت ملامحه قليلا، ثم استحال الظل ظلاما لكثرة الضوء الذى مال عليه وعانق فراغه... وكان الصمت يراقب اضطجاع الضوء على الظل يراقب دون أن يفتح فمه أو يطرف بعينيه، وكأنه يبتعد عن المزعجات، هذا الاحتفاء النورانى حيث سَكَر الظل وترنح فى أحضان الضوء الذى أخذ يرقص ببطء ويحرك لآلئه المشعة ناسيا أداء واجبه تجاه الصمت الذى آثر أن يظل مراقبا ووحيدا، الصمت الذى لم يصبر على ما رآه من انحراف الضوء عن مجراه فلحس شفتيه ثم تثاءب، فاتكأ البوذا على جذع شجرته اللقيطة وقال للصمت:

– سيكون الكلام ميتا مهما حاولنا أن نعبِّئه بالحياة ذاك أن من الصمت وحده يصنع اللسان فإذا ما تكلم فذاك لأن الصمت وحده هو الذى نقص فيه.

فعادت الدنيا به، وسمحت له الحواس بأن يتذوق بقاءه زاهدا بالضوء وهو كثير ومنحرف عن الصمت وهو يلهث هدوءا فأجابه (شبحه):

– من مُحيّـــاك يأكل الحلمُ طيفَه، من سعادتك تبنى الطيور أعشاشها.

فأجابه بوذا قائلا:

– كُف عن تذكيرى بنفسى... فمن لا يكره صورته فى عينيه لن يراه غيره.

ووقع بصره على ملك مهزوم وعبيده خلفه يحملون على ظهورهم مخلفات مليكهم، وينفرد واحدٌ منهم يحمل قِدرًا كبير من الطعام، له عروات وسلاسل.. فاقترب الملك وهو محمول على محفته حتى تجرأ على ظل الشجرة اللقيطة فنهره بوذا قائلا:

– ابتعد يا هذا فأنا لا أحبُ الملوك.

فأجابه الملك معتذرا:

– لا تتزعج يا بوذا فلست الآن ملكًا على أحد.

– ولا حتى من قبل، فمن يحكم غيره أو يدعى ذلك هو موهوم ومخدوع، ما مِن ملك طيب.

وإن كان ذلك فأن خيره وسيلة وطيبته دهاء.

فأجابه الملك المهزوم:

– كنت ذاك وانظر إلى ما صرت إليه

فقاطعه (بوذا) قائلا:

– وماذا صرت؟ إنك عائد إلى نفسك بالأحرى، وهى مالكة زمامها فإذا كنت ملكا على الناس فإن احتراق قطة بشمعة المترل سيكون سببه عائد إليك. الملوكية هذه مسئولية لا تبرير فيها، وأن تدعى السيادة على الآخرين هو أن تتحمل كل ما يتطلبه ذلك أو ما يتسبب فيه..

فالتفت الملك إلى عبيده وأمرهم بالذهاب إلى الحرية ففعلوا.

ونزل عن محفته وقال لبوذا:

قل لى ما يكون زادى وكفافى.

فأشار بوذا إلى أعلى وقال:

– المضى باتجاه الشمس ولا شيء غير ذلك.

تذكر براءة الطير وكرم المطر وعطاء الأرض دونما مقابل.. كن فى مركز الضوء دائما وتحسس خلاياك؛ لتحلـــّق بلا جناحين..

ما من إنسان مهزوم وآخر منتصر.. فكل ما يأتى يلحسه الموج على الشاطئ وحصا صغيرة ملقاة هناك تأخذ من الوجود وقتها كاملاً.. إلا نحن مسيرتنا نقصان ووجودنا يهرب منا شيئا فشيئا كلما توغلنا فى الطريق، الحكمة هى شعلة الهداية حتى عندما تحرق يديك فأنها تشعرك بالسعادة كلما ازداد احتراقها.

وتنبه بوذا إلى إصفرار وجه الملك وتغير ملامحه فأشار إليه أنْ أذهب وأجعل الصحراء تشفيك ولا تلتفت وراءك.. فالحرية لا تجزأ وكذلك الشرف والضمير. ففعل الملك المهزوم ذلك.. وأخذ الذهاب كله فى قدميه، وخرج الشبح على بوذا وهو يرتدى ملابس مهرج وأخذ يرقص له رقصة الآفاق وكان البوذا يفكر بالحسن والقبيح.

ونظر إلى الشجرة اللقيطة فإذا هى امرأة فاتنة بوجه ملائكى، وما أغصانها إلا خصلات شعر مجنون تناثر كالأمواج على جبينها.. ونظر إليها مرة أخرى فإذا هى تابوت يفتح فمه، فهال على ظله التراب وقذف نعليه فى الريح ما من مفازة لم تشعره بالنهاية، هذه الفيافى حيث الصحراء تشيب وتراهن بدماثة خلقها على مسير بوذا فى الأعماق، كان شبحه يحاذيه وعصاه صارت عتيقة وهى تطلق صريرا خافتا كباب خشبى قديم.

وقال فى نفسه: هذا حسن، فالعالم لا يزال طيعا فى نعلى ولم أخسر من الإرادة إلا نصفها.

هناك فحيح اسمعه فى أفكار الآخرين، ولكن هذا لا يهم فكثير من الشرور فى خدمة الإنسان والعاقل من يستولى على مفاتيحها.

هذا جمال عامر بالجمال، الحب أيضا صلاة وما من حب وضيع، كان بوذا يرفع أفكاره هذه وخطوات روحه حين سمع العاصفة الرعناء تزمجر وكانت دوامة من الرمال تلوح فى الأفق وكأنها غيمة

أرضية، فخر بوذا ساجدا وقد دخلت الصحراء بشبه الظلام، وكان لسانه يقول: ما من دمعة تراق إلا لأنك خالقها، أيها الأكبر والأعلى بأى معنى أعيد الأمانة إليك وأدع هذه الروح نغيب فيك أيها السلام الأبدى.

كيف يجرؤ الإنسان على إعاقة السلام الذى فيه..

قال هذا ثم استفاق إلى نفسه وعادت الصحراء سيرتها الأولى وكان السلام بين يديه.

هو أيضا يتشوق، وهو يعبر الآفاق باحثا عن صفاء اللؤلؤ، هو أيضا يتشوق.
هذا دأبه فى إغناء المسالك وكشف الاستنارات.
هو أيضا ينام فى قلوبنا من زبد البحر شفاهه ومن أنوثة الوردة قلبه المريح.
فطارتَ حمامتُه البيضاءَ خارَج سربها الأسود وحطت على كف بوذا ونادته بـــ (يا أبتى) وكان قلبها يخفق وشعر (بوذا) بأنها كلها قلب.
وهمس بأذنها رسالة الطير للبشرية.
– أنْ قوموا إلى وتعالوا ننظر مرة أخرى أعجوبة الخليقة، كم بذل فينا الوجود حياة حتى استحالت على الفهم وعصيت على الإدراك.. كم فينا من الأسرار ومن أسرار الأسرار كم فينا من المعجزات، وهذا البصر وحده معجزة وكذلك معرفة الأسماء ولمس الأشياء وتذوق الثمر
هذا الكلام معجزة والأصغاء كذلك معجزة،
النوم معجزة واليقظة والحلم والشرود والعودة..
كل هذا معجزة مبذولة فينا، فلماذا يتنافس الإنسان على تصغير شأنه وتحقير وجوده بانشغاله بالصغائر.. كلما كبر العقل فينا الجبل نفسه سيغدو شماعة ملابسى والأرض برمتها غرفة للضيافة وستصبح السماء بكل أبعادها أرجوحة لك أيها الكائن البشرى الفاضل.. صدقنى.

ولم يصدقه أحد سوى شبحه الذى فضل أن يبقى صامتا وعصاه التى شاخت مبكرا وهذا الكم الهائل من الرمل فى الصحراء.
شعر أنه ذاهب نحو الخطر.
كان الخطر يلهث غير بعيد عنه.
وسرعان ما داهمته حفنة من اللصوص يضعون نقابا على وجه كل منهم، فما حفل بذلك لكنه توقف شاخصا أمامه وعيناه كالخارجتين من محجريهما. فبادره كبير اللصوص قائلا:
– أنت بوذا الحكيم إذن..
فأجابه الحكيم:
– أنا هو.. بوذا الذى يقاطعه حفنة من اللصوص.
ما شأنكم بى وليس لدى غير خفى هذين وعصاى من غصن اليوكالتبوس وهذا دثارى لا يضعه القنفذ على جلده.
فأجابه كبير اللصوص بعد أن ترجل عن حصانه المجهد المأزوم:
– ما عهدناك إلا صادقا فكن كذلك معنا وأكرمنا بما نود معرفته منك.
– وما ذاك؟
– دلنا على قافلة الملك المهزوم أين اتجهت؟
فابتسم بوذا واقتعد الأرض ثم قبض قبضة من رمال وذرها بُوجه كبيرهم فقفز هذا متراجعا، وامتطى حصانه وقال لبوذا:
– سامحنى أيها الأب فلقد أخطأت بما أردت... فليس مثلك من يُسأل سؤالا كهذا.
فأجابه بوذا الحكيم بصوت متهدج ودود:
– إنما ضاقت بكم السبل وما أنتم تفعلونه ضلال.. ما أنت إلا مخلوق مسروق من بطن هذه الأرض وستعود إليها لا محالة...

عجبت لمن يكون عابرا فى الطريق، كيف يسعى إلى سرقة طريقه وما نفع ذلك إذا كان الطريق لا يملكه أحد؟

فاستدار اللصوص وولوا هاربين.

وسمع كبيرهم يصرخ عليه من بعيد:

– أنت على حق يا بوذا، أنت على حق...

ولكن الأوان قد فات.

وما كان أمام بوذا إلا الإسراع قليلا بعد أن حط الليل بجناحيه وانعدمت الرؤية فى صحرائه المنيعة، فلمح نورا ضئيلا من كوة غار فى تلة ترنو نحوه فانـــجذب إليه وأســـمَع صوته لمن فى الداخل:

– أيوجد أحد هنا؟

– نعم... مرحبا بك، ادخل ودع سلاحك خارجا.

فدخل (بوذا) الغار فى التلة، ووقع بصره على رجل عجوز يجلله شعره الأبيض وتأكل نصف وجهه لحية بيضاء وقد سفحت على حنكه مثل مكنسة كثة فقال له رجل الغار:

– أأعرفك. أم شبه لى؟

– أنا بوذا وهذه عصاى وهى ليست سلاحى فأنا لا أعداء لدىّ.

فسر رجل الغار بذلك وعرف من نظرات بوذا أن سؤالاً كان فى عينيه.

فأخبره هامسا: هو ذاك، هارب أنا، ومبتعد عن هوى الخليقة، ذاكرا الموت ومستعد لمواجهته.

فما كان من بوذا إلا أن قال له:

– الموت أمر يمكن تصديقه... وهو أمر أكثر من كونه فعل فما شأنك به؟

وكان رجل الغار يرتجف، وقد بدا الفزع يأكل أعصابه كما يأكل الجرذ حبل سفينة، وفكر بوذا فى تلك السحابة التى رآها تطير

نازعة نفسها عن جبل من غيوم، راغبة فى النزوع إلى الوحدة... رافضة أن يكون دبيبها أسوة بغيمة أخرى وأخرى وأخرى، فقال للشيخ غير مهادن:

– ما أنت سوى ذهاب... ما نحن سوى نظرة عابرة... فلم تخبئ الروح فى مغارة وتمنح الموت حظا جديدا؟

فانفتحت كوة من هناك، وبدا فى غار مجاور ودخل زفير خافت حرك شعيرات الشيخ الكبير وزعزع عصا بوذا من مكانها... ذلك جاء يحمل خبرا بصيغة لهاث، فنظر الشيخ الكبير إلى بوذا فهدأه قائلا:

– لا بأس عليك إنما هو العالم شارد إلينا متوسل معنى إليه، فكان ذلك نذيرا... وأخذت شعيرات الشيخ الكبير تهتز، وكان على بوذا أن يخبره بالوقفات المنيرة ومحنة الطير حيث الشقى يجافى هلاله ويتيه تيها لا قرار فيه.

فقال له الشيخ فى الغار:

– ما نفعى وما شأن صنيعى وأنا قاصر عن فهم لحمتى وبضع مادتى من التراب؟

فأجابه بوذا شاعرا بوهن القناعة فيه فقال له:

– تعال معى قليلا وأصغى ما من فورة ضالة ما من عطاء مبذول ألا وكان له صاحب، سيكون له حق السؤال فى المتاهة وذاك حق لا قصور فيه... فصمت الشيخ قليلا ثم مال برأسه على جدار غاره وسأل وكأنه لا يسأل: لم لا نفهم؟ لم لا نعرف؟ لم لا نجيب؟

وشعر بوذا بأن كلمات هذا الشيخ هى منتهى شجرة السؤال وأبعد حدود العقل فى حيرته الأزلية... فسمعوا وهم فى الغار صوت طبل لا اتساق فيه، وقد كان ذلك فجرا.

خرج بوذا وتبعه الشيخ بعد ذلك بقليل فأبصرا رجلا مخيفا يعلق فى عنقه طبلاً سمينًا وقد بدت ملابسه مهلهلة، والريح تلحسها كيفما تشاء، فأشفق عليه بوذا وقد رأى فيه شيئًا من الخوف، فدخل ثلاثتهم الغار وكان رابعهم خفاش كبير معلقة أقدامه فى سقف الغار ورأسه يطل إلى أسفل.

فجلسوا كعائلة واحدة... وأكلوا ثوما وخبزا يابسا، وكان الطبل يقتعد جوار الرجل كأنه صخرة كُسيت جلدا، وما طال هدوؤه فأخذ يهذى قائلا:

– من حلم يدحرج، آخذا على عاتقه الأفصاح عن التيه، فى السؤال الأزلى الذى خلقت روحه منه قال مبتسما لظله:

– الجنون طائر حر لا يستغيث بآخر.

فعرف بوذا أن هذا ليس كلام لسان بل مسيرة لابد من الخوض فيها، فوجه انتباهه إليه وقال له:

– تكلم أيها الهاذى وكن كريما.

فتكلم الرجل قائلا:

– معرفة السعادة فى مترلها البعيد، قرب البحر أو على قمة جبل بمحاذاة الوردة أو بين مخالب النوم فى يقظة طائشة رأيت اعوجاج الخليقة والوهم الكبير الذى يرتديه العالم وهو يعيد ترتيب ثروة الكلمات وفقر الأشياء التى فيه، ما من معنى لا تسىء إليه حريتنا، ما من عقل يصمد أمام ضحكة لعينة، ما من جنون ليس على حق، العقل وحده يخطئ ويصيب.

ودخل الرعب فى قلب بوذا، وأصفر وجه الشيخ فى الغار فضرب الرجل ضربة على طبلة الرعديد.

أيقظ الخفاش من نومه فجن جنونه وقال مبتسما:

– هذا يعنى طعامًا جديدًا آخر للشيطان الذى يربيه، الشيطان المسالم ربما إلا أنه يكثر هذه المرة من جرعة الوصول سابرا أغوار عوقه النفسى الدفين مثل أى شىء آخر كان الشيطان يصرصر فى عظامه ويسكر فى شفتيه.

رأيته بعيون ذلك (التيه) وهو يضع كرسيا مضافا على طاولة عشائه هذا المساء.

هناك زائر عدمى مشرق، سوف يبصق لعابه فى طعامه البارد، ما ذاك إلا الموت نفسه الذى آثرت التقرب إليه محاولا ترويضه بالذهب والفضة وجلود النساء البضة المعجونة بالسوائل والعطور وهو لا يزال غير مبال بالصداقات الأبدية.

النشاط الجم لإرادة (الفكرة)، إنها تستهلك وقودا أكثر وإذا ماذا ما ترك لها العنان فأنها تشرب الضوء كله وتخنق الهواء...

لابد من تفاهة مناسبة تساعدنا على تحمل لعنة الحياة وهى فارغة من السعادات، فارغة من الأمل الذى لا يراودنا وكذلك من الأقرار بالهزيمة الشافية لذلك الكائن الذى يتكبر!

وأخذ الرجل يهدأ شيئا فشيئا ويرتب أسراب أفكاره... وقد بدت عيناه كقطتين سوداوين تتربصان بفأرة أنفه وهى تزحف صوب مصيدة شفتيه، فقال ببطء لذيذ:

– سوف يكون القادم من الجنون كمن يعيد العقل إلى البرية حيث يدهش تماما من فراغ العالم تحت قدميه وإذا رفع رأسه أكثر مما كان عليه فإن الشمس نفسها ستسقط فى عينيه...

إنما الضوء نفسه أشد ظلاما من الظلمة إذا استحال الضوء كله ضوءا.

فقاطعة الشيخ الذى فى الغار قائلا:

– ما أبقيت لنا شيئا نعتاد عليه وتكاد (ذاتى) تفر منى بعيدا ووجهى يتحول إلى قفاى.

فنهره الرجل صاحب الطبل قائلا:

– ماذا؟ أنى سمعت أحدهم يتحدث عن (الأنا) وهذا يشبه من كانت لديه مرآة صغيرة يتطلع إليها وهو فى صحراء فيصدق أنه يتحدث إلى (آخر)!

لا بأس من أن تحمل (أناك) على محمل الجد، وذلك يكون عندما تدمن على تكرارك فيك، بينما المفروض أن تخرج من نفسك كما تخرج الثمرة من التربة والحياة من البيضة.

مزيدا من التكشف خارجا، إنما الذات عراء.

سمعتهم يسخرون من كثرة تطاولى على الحقوق والواجبات. ما الحقوق وما الواجبات؟ إن هى إلا اتفاقات عرضيه لدفتى الميزان وما من ميزان لا يضع نفسه تحت رحمة اليد التى تربت عليه.

الصعوبة كلها فى تقبل الإنسان لفنائه، الصعوبة كل الصعوبة أن ذلك الفناء لا علاقة له بالرغبة. ولا رغبة حقا حيث ينبغى أن تكون. هناك عطالة... وذلك يعنى الحب الذى يفنيك بآخر ويحوّلُ جوع الجسد إلى لذة غامضة وإلى اندماج قميئ... أليس الحب وحده يجعلنا نتذوق القذارة وكأننا نسقى عسلا!

من منا يأكل نفسه ويشبع؟ من منا يفكر حقا بصوت تنفسه الداخلى ومجرى تدفق الدماء فى الوريد؟

من هو الآمل حقا لجمع أشلائه بكفه ودفعها إلى أنساغ الأصابع فتتحول إلى جمرة والجمرة إلى كلمة تكون النار فكرتها التى تفور فى أحشائها، من منا يفتح النافذة مرة واحدة... خارج عينيه؟

من منا يقلب الموت على قفاه ثم يعلقه على عروة المشجب فى غرفة الطعام ثم لا يستحيل بذلك إلى ذكرى؟

من ذاك الذى أحصى خلاياه ووفر زمنا إضافيا للمشى من خلالها؟

أى حيز من الضوء تمثّـل فينا... ولماذا جاء الضوء إلى حيوانات مثلنا... محكومة بالطعام والماء والهواء، مشغولة بالأسفل، من منا يصدق ما يعقل قبل أن لا يصدق ما لا يعقل؟

كان بوذا يطرق برأسه وكأنه يسمع نفسه مفكرة بصوت عال، والرجل صاحب الطبل يشن الكلام شنا ويحارب الكلمات بالكلمات والأفكار بالأفكار، يحارب دون أن يلتقط أنفاسه، وكان الجمال يذوى بين يديه وهو يهم بابتلاع الفراغ والهواء فى ذلك الغار البعيد.

ماذا أرى.. كان الزمان كله ماء، وها هى الأعجوبة أننا هنا، يتيم هو المكان الذى حصلنا عليه، مكان غريب نحفظ أقدامنا فوقه، مكان يعنى أى شىء آخر، ويهب نفسه لأبعد معنى ولأبعد مدى سوانا..

وهنا قاطعه بوذا ولم ينفد صبره بعد، يتحلى هذا الرجل الطبال بحكمة من طراز خاص فقاطعه بوذا قائلا:

– أى حكمة ستبقى عليها وأنت تزيل المعانى من الرؤوس؟

فأجابه الرجل الطبال بطيبة خاطر قائلا:

– حسنا أننى أمقت الحكمة التى تدفن فى الرؤوس. حسنا أننى أعتقد بمخاطرة العصفور ووقفة النملة ودوران الفراشة وتأمل الصقور أعتقد بكلام الأشجار فى ألسنة الريح، وهمهمات الماء فى

باطن الموجة.. أننى أعامل الجبل كفكرة عصية، والأنهار نفسها سير للرحيل، النوارس أحلام فى رؤوس السمك والحصى حروف مبذولة على الشاطئ، النجوم قطرات مطر مجمدة والهلال نصف ثدى أفلت من أصابع الصغار، البيوت قبور جيدة الصنع، والأبواب أفواه مقترحة للجدران.

أننى أعتقد بمذهب الرمز وأذهب إليه، والرمز ذاته يسبقنى بهمة هذا الخفاش الذى يعاقر الصمت والظلمة.

ما أظن ذلك إلا الصواب بعينه، الهواء هو الكلام والظلام استماع.. الرؤية لابد لها أن تقلع عن نفسها.. أننى أتدرب على اللاشىء لكى أسمعه لا أن أراه.

ثم مال على طبله منتشيًا وانتبه البوذا إلى صاحبه الشيخ فوجده ساكنًا فى جلسته ميتًا لا حراك فيه، فنهض وقد بدا التعب عليه فأشار على الرجل الطبال أن أذهب، فحمل الرجل طبله السمين وخرج فتبعه الخفاش وكأنه يخصه. ولبث بوذا حينًا من الوقت ثم قال فى سره:

– جثته فى غاره ومهربه فيه.

وظهر له (شبحه) بعد أن غاب طويلاً، وألقى التحية عليه وسأله بوذا عن سر غيابه فأخبره الشبح عن ذلك بهمس يألفه بوذا، فقال بوذا مشيرًا إلى جثة الشيخ:

– تعال نخرج من مملكته.. فلا حظوة لى.. ما أن وجدت رفيقًا حتى غربت الشمس عن عينيه وأسدل السلام على روحه وفرغ منى فى ليلة هذه بقاياها.

وخارج المغارة دمعت عيناه وارتعشت عصاه فى كفه ومشى سريعًا يتبعه شبحه، وفى الأعلى يحلق خفاش، ومن بعيد يأتى صوت طبل يدمدم.

وما كان هذا كلَّ ما لديه، وقد وهنت حكمته فيه، إلا أن العالم كله يعوض جروحه، وكانت أطياف الأولين تعود إليه، وإذ كان ساهيًا لاقاه بدوى وجمل فتحاشاهما بوذا مرتين ثم نطق:

– اتتبعنى يا هذا؟

فرد عليه البدوى:

– ليس تمامًا إلا أن السبل تقع على بعضها ولا أجهل من أخاطب.

وشعر بوذا بألفة مع هذا المارق متفرسًا فى وجهه الأسمر المتكبر وانتظر من البدوى شيئًا فكان له ما توقع.. فمال عليه البدوى وسأله بصوت أجش:

– ألا تكفيك مؤونتك.. أعنى شبع الحكمة فى عروقك؟

فابتسم (بوذا) وأجاب:

– ما من مؤونة ولو بألف قنطار من الحنطة تكفى طائرًا يتفكر.. فما أدراك بشبع عروقى؟

فخجل الأعرابى ومسح العرق عن جبهته القاسية ورقق من صوته قليلاً:

– أترضانى رفيقًا؟ فلقد أضعت ضأنى وأهلى فى عاصفة غزو وكان عرضى معهم.

– وهل أطيب إلى من مصاحبة الذى مازالت الأصالة تنبض فيه؟

فترجاه البدوى أن يوقع فى ذهنه حكمة تهذب نفسه ويحفظها لغيره.

فأخذ بوذا يغرد قائلا:

فى [*الوجود*]

ذاك أثر واسع الخطى على الرمل المنسفح.

ونحن دائما عائدون عنه وهو ذاهب عنا بين فينة وأخرى تنبعج الرمال قليلا وهى ساهية فيكون ذلك خلقا متخلفا عن مسافة الوجود الذى فيه وكمية الدهشة والرعب الذى صنع منها

فى [*العدم*]

لا وجود لعدم ما هو ألا تذَّهُنْ..

فلا صفة له ولا معنى ولا موصوف.

أنه عصارة الوجود، ورغوة السؤال، وعسر الذهاب مبصرين حتى النهاية!

فى [*العقل المبذول فينا دون إرادتنا*]

ذاك حبل، ذاك وتر متوتر بيننا وبين ما يحيطنا من أسوار وفضاءات لا فروج فيها.

أنه مجرد آلة عاطلة تدور فى قفص، وتُدعى الخواطر التى تطرأ عليها أفكارا.

فى [*الخروج إلى الآخر والدخول فيه*]

أنها طينة تتوزع وشظايا لمرآة إذا ما تجمعت فى أناء واحد أصبنا بالرعب من فرط الوحدة واليتم.

فى [*الأمل*]

هو دعابة فى مقبرة وابتسامة طائر يسقط عن جناحيه، أنه رغبة فى النسيان والسهو عن الغياب الذى يتجدد.

وفى [*الحب*]

ذاك إله عصى على المقاومة، ولولا الحب لحقق الفناء أمله بالحكم الأبدى.

فى [*السعادة*]

السعادة الحقة غالبا ما يبددها اللهاث بالبحث عنها.. ولذا فإنى أدخل زاحفا إلى ظلامى ممتنا للخفاش الذى فى عينى غير مبال بصراخ الحيوان فى أعماقى، هذه السكينة الآمنة وأنا أطـــرب لصوت الجوع والعطش حيث يأخذنى القمر فى رعايته وينشر

الجـــمال أنوثـــته على صـــفائى وكأنى حامل الضمير إلى وثوقه وذاك يعـــنى (نيرفـــانـــا).

وبعد حين إذ واصل الأعرابى إصغاءه وقد قطع شوطا فى الصحراء. ارخى دابته وأرسل انتباهه إلى بوذا فاحصا ملامحه وهو آمل أن يبشر بما سمع وأن يكشف صدره عن نور حثيث كان ذلك النور قد مد لسانه لاحسا المتاهة فى الصحراء، وحين التفت إلى جنبه كان البوذا قد ذهب بعيدا وسحابة رمال تتبعه وصورة شبح يطير خلفه ببطء شديد.

حدث بوذا نفسه وقد كثر به الشوق للراحة وازداد الحنين به إلى النهاية قائلا:

– هذا هو طيفى أرسمه فى حنايای.

هذا ذهابى إلى المجاهيل، فورة صدعى واعتزازى بالعاصفة، فمن غيرى يطهر الروح من المعنى، ويحرر القلب من ضريح الجسد باحثا عن الفراغ المبذول فى هذه البقاع، ما من حياة كافية لأن تسرقنى من مسعاى، ذاهب أو قادم، متعال أو متهافت، فإن النور ثروتى وكل هذا الألم هو حصانى عند المنازلة..

وجاءت به أخبار أمم لا ترحم وهى تحرر الأقاويل عنه وتنعته بـــ (المُخطر).

حتى غدى سلامه بدعة ونوره سحرا وصمته ريبة.

ومثل الأعرابى بين يديهم وشهد ضده وكان هذا ما فعله من قبل.

(رقاع الحديد) و(العقرب الشمطاء) و(الراعى وخرافه) و(عروس الثور) و(شفاه الغجر).

وعاثت به النوايا والظنون، واستحالت رجالا أشداء يضعون على وجوههم النقاب يسبقهم الرجل الثعلب وهو يبحث بهمة لا تجارى

عن آثار قدمى بوذا فلا يكاد يلحظ شيئا لأن بوذا فى مشيته يرحم حتى الرمال التى تحتضن قدميه.

وتبعوه عشرة ليالٍ وأضاعوا أثرهِ مئات من المرات حتى علم البوذا بذلك فقدم بنفسهِ إلى (زعيم الخَّيالة)، فمثل بين يديه وكان قد أقسم فى سره ألا يبوح بكلام لغيره حتى يجف اللسان فيغدو حجرا، واقتادوه أخيرا إلى مكان يدعى (مصحة الجرذان الراكضة).

وكان مودعًا بصحبة آخرين كانوا قد اتخذوا الصمت مهربا، وروى عنه شبحه بعد حين كلاما يدور فى أعماقه وأناشيد أخرى.

بوذا فى مصحة الجرذان الراكضة

أطرق على جدران الماس وسحر الخليقة، أتضور جوعا
لآكل الفضاء غير مبالٍ بالنيازك العجولة
الذكاء بحاجة إلى خبز الكلام
وعقولنا تتيه قبيل المروق إلى أشلاء الفراغ
عربات.. عربات.. عربات
أسمعهم يطرقون العجلات الراكضة، تفور أقدامهم على الانتظارات الفاحشة...
طيورهم نساء من الصابون
ورجالهم لقالق خشبية
كابوس حار وآخر يمرق من ثقوب الكيان
حافلا بالمواعيد والملاعق والبدائيين
ما من قارة لم ألعق لسانها
ما من ضريح لم أفتش به عن خلاياى
فأين أنتِ وأنا أستحيل سخاما
وأجنحتى مثل أرانب فى برارٍ مزعومة
ما من ظل هنا.. "هنا" لا شيء سوى الفراغ
سوانا نحن لا أحد يعيد الأمجاد إلى المخاوف
وعلى جباهنا كان الأعلى يناوئ فحيح الصحون ويمنع الهواء عن النمل
بوابات حديدية أم أنها قطع من الحلوى كانت
أزج يباسى بها وأريح حواسى فى جلدها الأخرس

سيزرعون الضوء والكدمات والتواطؤ المريع..
خرطوم من الذهب يشتمنا
ونعاج من العاج وغانيات من حصى أملس
أولئك الذين فاضوا عن المرآة ولم يتوبوا
وفى أسمالهم يبنى النمل أعشاشه ثم أنى أخبئ ظلهم عن السماع
وأطوى أعمارهم قبل الرحيل..
قطرات من كنوز مسجاة على مريلاتهم المدعوكة
وهم أيضا.. شاب العصفور فى تيهيهم
ويئس الحمام ثم استجار
ثم أنى سرقت الأصول وهممت بالتوبة المعادة
مفارقا أو غير مفارق
راكضا أو غير محرج بعد
وكان الوقت تنينا ينام فى فجوة مهملة متحللة وهم يرقعون العربات ويرضعون الحديد بالأصابع
بعضهم.. يحيل سعف النخيل إلى دراهم مغبرة
ويقعى الحظ فى أخصائه مثل عبد يشذب.
حيث أعضاؤه لا تعض..
كفي.. أيتها الجرذان عن الثرثرة والوضوح
وتعالى نحلم بالأسفل المبذول
والعطايا التى شمرت عن صولجانها
وهذا المساء.. يدفعون الملوك إلى الزوايا
رُحل.. كقمر يشحذ
أو كغزالة عقرتها الشهوات وهى تضحك مثل نهار يتشاجر..
ما من اتجاه آخر لا تبيض المنايا فيه
وتحار السفينة فى حافاته

سافر هو السؤال عنهم
وغير مفيد بعد الاستعانة بالذاكرات
بعضها من خراب وآخر من عناكب نصفه وجه مظلم ودامع
ونصفه الآخر مهد يُدَلَّلُ
وسأخرجكَ منى ملبدا بالخواص ومشعثا مثل سرير من فحم
حسنا.. المصحة عاطلة وهى تتقيئ أشجارها الملتحية
أسراب من القطا لم تنم فى هواى بعد
معترضا على "الآمن" وأنا أرد العيون عنى
كنا نعشق الوصول وندمر الجغرافيا..
هكذا قرأنا أبجدية الصخور وتسلقنا أقواس "الكنائس" بمريلات
مستعارة وشارات إعرابيين يتهيجون بالنفور
سأسكن هذه العطالة متذرعا بثغاء العقول
عقاقير صفراء أحالتنا إلى تيوس مأزومة
وركلنا صخورنا حيث علينا.. الارتفاع أكثر
أكثر من المشيمة المرتعشة
أكثر بقليل من صالة الضيوف وركن الاستمناء
سأفر من أجل نجوم مشردة
ولن أكف عن اللهو بالأرانب ودّواة الحبر ومصائر الدود
لنذهب من أى كوة يكون الهواء فيها قادما للمشاهدة
من جلد الزجاج حيث الضوء يرتاح
من صدع بمى يكرع الغاز ويطلى الرؤوس بالحيرة
من هذا الممر الذى اعتصرته الحروب، وعاقره الخراب وآخرون من
دمىً مهملة..
إلا أن العربات تصرع الجرذان، العربات الضيقة المناسبة للذكرى
حيوانات مشابهة سرقت الهواء

وجعلت الضوء يلتئم
ما معنى ذلك البون الشاسع فى الوريد؟
هذه الدغدغة التى أمتطيتها وأنا لست منى بعد
العجينة فى أسفل لسانى تبصق هذا الجمال
ثم ماذا؟
أنت ترغب بالفراغ وذلك الأذى فى يمينك
وأنت تصيد التبغ فى السعادات البسيطة
إلا أنا..
مازلت مكتفا فى مصحة الجرذان الراكضة
أتسلى بحطام الخبز ورغوة الكوابيس
أعيد ترتيب كنوزى، فضلاتى من العوسج
وهذا الدنىء القائم على أمرى
حين يكون الحب توأمى فى النزاع..
سأطردك من الليل قبل أن يتكدس من لذته الفاحشة وطرب أذنيه
لا لشيء.. إلا لأن الجنرالات يتابعون الهمم ويسقطون الحصانات
عن الوردة
يحملون أكياسهم من التبغ والخمر الأحمر
ونساؤهم لا يعرفن شيئا عن الغليان
كما أنى لا أعرف شيئا عن ثأر الفضائل، عن حظوة القمح وكدح
الفؤوس
خذها برمتها.. التفاحة والفخ
تماما.. سأكون مطلقا فى الفخاخ ومرميا على جناح بعوضة..
خذها برمتها.. لن تسمعنا الجرذان ونحن نتقيأ النقص ونخبئ العمر
فى صندوق خشبى عتيق

إذا كان لا بد من ذلك.. فهذه الذيول وتماثيل أقل شأنا وأكثر من رقعة اللامتناهى مثلا
سعة الفكرة وهى تفتش جيوبها
إحلال المادة بالزئبق
وشنق السؤال على كتف مناسب
هالات
مقدسات
من الزوال الرعديد الذى ما كنت لأوليه ثقتى لولاك
وأنت تبوح
وأنت تعاقر الطين
وأنت تسلخ الظل فى منامتك القرمزية
وأنت تفكك الحبال فى سفينة أو ذكرى سفينة
متراجعا عن القبول ومنقطعا عن أناى
آسراً فتاتى فى قبائل الخشب.. مفتشا عن كهولة السبب ونسيان المجىء إلى هنا أظلم!
لا فرق
سأجنى جنونك حتى وأنت لازلت طريا كشحمة تغتسل أو كحلمة تتفتح وهى هاربة
لا فرق
سأدلى بفردوسك وهو يفور حتى وأنا أداعب الشخير فيه والدعة والشرود المُـــتخم
ما كنت لأسألك وأنت لاهث وراء القبلة المثلومة
وراء أنهار من عرق الأعضاء ولعق الزوائد
ما كنت لأريدك وأنت تتوب
وأنت تفرك صدغيك بالأمور الجسام

مضادا للألوان كلها وصارخا فى المزامير
أنت تراهم يحملون أشباه وجوه مائعة وخطوط ملامحهم معتقة بالعتبات وطيور السُـــلالات المشوبة بالهجرة على قفا عرباتهم زهور الهدايا
وهذا الإله الأليف يلحسهم بحرية وبلا شرف
إنهالت عليهم الأمطار وهو يعجن التراب بالعظام التى لطالما تمطت وصافحت الجميع!
ما كنت لأُعيد القبض عليهم
وهذه المحبة بلا دورق
بلا أية بهجة تمد رقبتها ولو إلى حين!
تركتهم هناك وسط زعيق الصخور
والهواء ناعس وبطىء التذكر
قرب صور مشاعة وأخرى مليئة بالحماس
وعلى أنفى.. رائحة الفراشات وهى تفترق سريعا والضوء يبدد أهميتها بلعنة خفيفة
كنت مرئيا
حتى شذوذ طاقتى عن التحمل
قبل أن أعدل عصاى متظاهرا بالتفاؤل
وأكسب حتفى فى زعانف ورقية وغطرسات أحباء
هيا.. هناك اتساع مضاعف لهذه القطعة من الوحشة
أنه سيء.. ذلك الذى باعدناه عن حظوته وصدقنا غيابه
أو لعله هو دائما ما مضينا إليه.. نتساءل
نتساءلُ.. وكأننا صغار جدا فى صحراء عينيه
ساعة المطاردة الصبيانية
وفقدان الأمل بالطرائد

ليس هذا كل ما فعلناه بالتلاشى فى ساحة وقوف الجرذان
ولهاث الغبار فى صولة ضاجة
إلا أنك لا تصدق العودات والانتكاسات..
ولا حتى إشارات قبائل الغيوم وهى تواسى شيخوخة المطر
ولا حتى صحوات المنايا، رفيف الهواء فى فراغ الكيان نسف الآمال
فى نخاع الجولة المفرغة دوما
من هنا.. أخذت الجوزة وقردى المفاجئ يبول على الأثيل المصفر
البارد
وأفكارى عن الناى
متطوعا للحكمة المسلحة بالمزحة والفسحة الشابة
جنونى مباح للهزيمة قرب شموع عينها..
قرب نزالها المشابه لافتراس العلل..
هناك.. تكلمت عن الرعب والبصل وشفاء أوهامى من الاشتياق!
هناك.. ما تكلمت عن شقاء مشارك
عن جزع المراسى عن دوامات عطور وخمرة سائبة يزداد عطاؤها
بالضنكة الآدمية
رغم أن لحمى لم يصمد
حيث البرودة عفونة وهذه الدفوف تحرك الرمال
أوصيتها بالملاذ
لا ترتجفى أكثر.. وضمى صدرك للأصنام
لا تحيضى فلقد فات أوان التواجد
وأرفعى فخذيك للرقص بمعنى المغادرة
وجعى عليك
وأنت تشتمين نصفك وهو يُـقـتسم
ماذا تقولين!؟

ليس أعلى من برجهم هذا الحلم الصوفى
قلادة البرارى
نخوات ونزوات مصابة بجرب الإبل
أكثر من معناك
صفاء هذا البعد من الفوضى
وانشغال اللامتناهى "بخردته" من المرايا!
دونك.. هذه الآلام
وفقاعات أخرى على جلدك المستعار
على تكرارنا.. حطمت الأبدية صخورها
وملاذها ثرثرة بطون تظهر نفسها بناموس نيء
جاءت السماوات أخيرا
وهذا الجرذ دوخته العاصفة وفقّرت غنائمه الشماتات، فيوضات أخرى أعاقت الرؤيا عن (الأمام)
أعاقت السؤال عن عشبة الحكمة
والحكمة عن قربان آفل.. باهظ الثمن وصفيق
جاءت السماوات أخيرا
وعلى نقالات خشبية خرج الكمال عن قدميه
كمال يأكل نفسه حتى سُرّة الأرض
يأكل ولا يتجشأ
يأكل من الكلام والأثداء وخرس المروق إلى طيف يضحك وهو يغلـــّق الأبواب
إلى مصحة تتقيأ الصباحات المتشابهات المفلوقة
وتقلى الأطوال والمعاول والأجساد كأنها من شراب مُسكّر..
يدوس علينا هذا التعدد الذى يوزع حناياه فى كل هذا، لا زلت مصرا على متابعة العربات وهى تـــُصلب فى مساء آخر

تـــُصلب ويتراكم خفوقها
وما لدىّ غير معناك من الصدأ، وما لدى أبعد من قِـــبلة الأصنام وهى تطير بحرية الأطفال وتلفظ أكفانها وتفجر قبورها مثل بالونات مغشوشة
شعورًا عرفته يميل إلى التورط بالدبق
شعوذات وفنون واغتصاب شيَّق للرعب والسيلان
هذه أسلحتى من الورد.. فتاتي من الموسيقى وليس لديّ من الذهب
ما يكسو فضة القـــُبح وترابهم المتعفن في المؤخرات
هذا قطافى من ثعالب محنطة
وكفافى من سقطات النجوم
أبذل قصارى جهدي
وأنا أمنح الشهوة شجاعة الموت لا أكثر
وكلامًا لا يكاد يطاق
عن مصحة جرذان راكضة
وعن ضوء يختنق بالهواء
وعن ظلال لا أحد يدحرجها
وهوّات لا مثيل لها..
من أكوانِ أزاحت الصوت والرؤية بعيدا عن الغياب وقريبا من التشوف مثل مرايا تناظر قفاها أو مثل نملة ترى نصفها على صفحة ماء
وتدليتُ أخيرا بحبل وريد ألعق لسانى فى أناء ساخن من مخلفات كلب شريد تحرسني اللغة وتشتت معناي أنا الموجود من قبل بهذيان بسيط وأومى إلى البعيد موزعًا دمى على الحقائق كلها
مدفونًا بالكلمات حد الخرس
وعينى سؤال لا يُرى غير ظله فى الكلام

وأشباهه يفرون كجرذان مذعورة من سفينة الصمت!
يحملون ألواحا من قصب السكر ومعاول صغيرة
وقاطعات أوراق من عاج مرهوب ومن معدن آخر من لحم أو من دم يحيض
هذه العربات العمياء عن شمائلها حيث أتهجى:
التماعات لا حصر لها
أكاليل عابقة بالرءوس المذبوحة المحاطة بالحجارة والطيور
كما لو أنني مشغول بالتبريكات
لا فكاك عن أعراف تـُذبح واهية كانت مثل رقاب شجيرات أو قلوب عصافير
لا زالت مطلية بالغياب وحشتي
وهذا الرجوع المارد لا دخول إليه مصوبا الريح خارج معطف العالم
أتسمع إلى "الدوزنات" فى الأعالى
المخلوقات التى أكلت حتى ماتت
المخلوقات كلها هنا من زمان منفي وكاذب فى حلوله المقلوب
هذا ممكن الحدوث
وبمزيد من الفجور من الروث والرماد والمطر
سأضع لك باقة من نقيع الإرادات عصيرا لا طعم له غير الإنسان المزمن
ومن دونى لن تحصل على بركة هذا حجمها فى مصحة الجرذان الراكضة
ومن غيرى يفكك كل قدوم مفطور على عادته فى الاتكال..

***

وما أن خرج من غيبوبته مشبعًا بروائح مصحة الجرذان الراكضة حتى فر منه عقله واستحال شموسا

هو الحكيم الوحيد على هذه الأرض
حكيم محكوم عليه وطائر مطارد فما كان منه إلا أن دخل فى ظل
(آتيه) دخل نادما على ذهابه بعيدا عنها
ذهب إليها زاحفا ومتوسلا..
فخاطبه بوذا قائلا:
– يا آتيه.. ها أنذا ماثل بين يديك فأصفح عنى.. تائب عن العقل
الذى صيرنا خرافا..
وخلفنا نفايات..
وشعوبًا وقبائل
كأنى أرى الحكمة قناعا
والجمال كساء للقبح الذى لا نراه..
استمحيك عذرا
وأرمى بالقمر بين يديك وأخصك بأنشودتى..
أسميك آتيه وأهذى
هذا معناك يتجشأ..
مرسمك القطبى
هذا دثارك الناعم، البهي
وجغرافيا تناسلك خلف المدن العصية على التصديق
كرمك بالتكسّر مارقا ومحمولا على بيضة الوقت؟!
شادا روحك إلى وتد التماهى
مرهوب الجانب ودنانك تسيل مثل رائحة شواء
صدقناك.. صدقناك
فلا تبالى بارجوحتى وهى تنقلب ذئبا يعبث بزعفران الكحل
هو عسلك موات.. وشيق
حد حلم يتقاعس

السعفة تغنى
وببذخ خاص، أخلع نعليّ فى معبد الآفات
يا "آتيه".. رفيع الشأن أنت وقفازك غير مسالم
أدخل إلى أوكارهم وأصلب الجهات بالترمل
يُــتمك وحده كفيل بإرباك الوردة
فى نسغها المحموم
كفيل بتحطيم شارات العبور فى صحراء تتفكك
فى رحيق الماء ولزوجته الآمنة
الليل أسبق أم النهار؟
الليل أبقى أم زوال الذكرى
النعاس أم الريبة؟
سأنتظرك ساهيا فى شحوب الطين
ولن أشمئز من سعى الخواطر فى حَوَلْ وجهتيك
من ألف (لا)
أرتضى بروكك الأرعن فى شعابى
وأشد على يديك حيث نثارك
من الفضة والعلقم
وأوافيك بعد حين.. وأنت تصيد غليان السعادات
من منا.. يَدُكَ عرشك أولاً؟
النوافذ العالية بملابسها الداخلية الموشاة
أم صراخ الهواء فى أحشائك اللعينة
أستشيط غيظًا وأنا أفر من زحمة الحلم فيك
أدفن خصالك فى رمال تجف
عقوق آخر أنتظر الحفاوة به
وأسلبه تحفظه عن الضوء

ما نفعي وأنا أتلوى مثل آفـــاق تتنافس مثل دودة مقسومة
أو لعلها أفعى مدهونة بفكرة
أعود إليك
قليل الشأن وضئيلاً فى أبعادى وأناى طافحة بالعسل
أوتارى مبللة وكذلك (المطلق) الذى رهنت فيه
هذا التكثر حيث فتنته تموء
سأجاريه عنوة وأرى ثقوبه
تخلف النفايات صوب دربك المشبوه
وأنتِ عالقةُ بالوجل والالتفات
مكبوسة ومصغية للنسيان
والصَوُر والطين
سأسميكِ مزاري فى حنين صاغر يتنمرد
فى وديعة مشاعة للحلم أو التردد
ما معنى هذه الكدمات..
ولَمَ جرأتى على التباطئ؟
الأصل البربرى.. يتأهب
لا نهاية تطالع صفحة الماء
بربريات أخرى
تئنُ على منخريّ
النشوة تعبأ فى أكياس الريش
مخلوقات تتبعها حماقات
حفاوات قرود تتناسل،
أرى لعابهم فى المؤخرات
أراهم جميعا فى الهبوط..
وحوش صغار فى قفاي

وأحيانا أرغب بالتخلص من بصاق البراكين
حيث الرءوس مــُداد الحكمة تشرف عليها كلمة ملولة لا تتشاور
مثل قرطاس نط عن طرس
أسحب خيوط أصابعى.. أشرب الندم فى منحاه
لن أسميك سواك
لن أفارق التلعثم وهو حياء محاصر فيك
مرغوب عندما تكون ذكرى،
وأنتِ تهربين من فضاء الصوت من الدكّات الواهية للذهاب من
ذلك المحراب العتيق تخرج الشمس ليلا وتعود مذعورة لتقاسم
الخفافيش عدمها البارد المهين
هنا أتحسس رهبة الكيان
ومن حقائق مساعدة
مُعدة إلى مترلات متوجسة بالآس والحناء
وصيًا على أكثر من ينبوع يتفوه محصنًا بالهلوسات
وشفتين مغسولتان بالصفرة
بيوضات امرأة زحفت هنا ذات أزمة
مجاهيل لها أكفان خضراء فى مواسم الكهنة
ليست على ما يرام تلك الأزلية التى فاضت على حدودى
هاربا وصائدا نصفي في البراري
كان الصقر هو العائد الوحيد
كغيمة سوداء مشبعة بالسكون
وأنت حائر فى أمرهم
ولا زالت أعضائك لا تــُحصى ذلك الجنون الذى لحسته الآلهة
شرقا وصارت له هيبة وهو يتوسط صفاءه بدثار من الصوف
"كمنجات" من شعر الخيول

وأفياء من نخيل معمـــّر
وأحيانا.. أنذال صغار يزرعون مؤخراتهم
على عشاء بارد
قدورهم المتشحة بالسواد
وحفنة من الدراويش يهرعون إلى الطاعة
وهذه الأخيرة لا تعنى أكثر من التوغل
شاهدت أنهارا من طيور على سماء مطوية!
تابوتًا لقرصان مدمى ومقود حصان مسروق
فلقد انهالت المناقب على البروج
دفاعات واهية كانت السّـــيرُ تهرول بهمة أرنب ملدوغ والأقدام
تتساقط مثل شظايا زجاج مكَسور
انتخيت الأشياء وخنت أسماءها وأنا أصرخ فيكِ أن تراقبى الأنهار
وهى تحترق بالأكاليل
دورات ونعى محاصر بالتصفيق
أفواج من العصى تتكسر على ورك الضحية
حيث الحرية تتوب وتـــُسلب بغياها
والشعوب نزهات تدب عرجاء كأشجار شمطاء نُؤبن، كشتاء
عصامى لا تطيعه دموعه
هذا منزلك الذى سُجنت البغايا فيه
سياطك وحلوى ضميرك
محراثك التافه
وسنابل مُـــنـــَشّاة فى عنقك المرهون بالمواسم
ما كنت لأطيق الرجوع خاليًا من كابوسك الأريحى
ومن لجام عينيك
وأنا أقطع الصراط وفى يدى تفاحة للتوازن

راشيا الملائكة بالملائكة
مروضا الحيوان بين ساقى
محترفا المطر والأسئلة والثعالب
معروضا عن اللـــُقيا
نصف مغمض وهو واقف لا يتنازل
أصفعه ولا يجيب... رفضي
أشمه فتأكل حمرة خديه نصيبي من التطاول
ثم يذهب وهو غالى الثمن
وعزة نفسه ألف قنطار من الشراسة
ماداً ذراعى كطفل يتركه النهار خلفه
ولي هذه الكنوز من الحنطة ورحيق شفاه تهجع فى ضعفي
فضاءات ضاغطة فرزت شروقي
متوقدا كنت وأنا أسرق أتزاني من هنود يتخشبون من تلعثمات مؤذية
"وماصولات" أفاع متنافرة
غبارى صار حصونا
وغابات وأشباح من الأشجار
وشيوخا من حجارة
زمن صعب... أسقط من صهوته
معتذرا مثل فارس يزول
الأمجاد كلها تترى عليك كنشيد فوضوي
ولعلنى ظننتك واثقة من دحرجتى
حتى وأنا أسقط سريعا مثل عفاف مرتش
ما شأنكِ لتسألنى؟
ما معناكِ لتجيب؟

أين هى مراياكَ لتورط وجهكَ بالمسافة
أين هو ضميركَ وأنت تشرب لبن الآله وتنهب السماوات وهى مسالمة كغشاوة عروس
من تكون أنتَ لتتفرس بالحكمة وتعبث بنعاج الآخرين
آتيه يا آتيه
سرحوكِ عن التصديق
وأنتِ عاكفة على الوردة
هائمة بالغزال ولينه فى مجراك
متاهاتك هذا نصفها
ونصيبها من الشواطئ والأجفان
مسكونة بالغياب حدًا كل ما فيك يصير بهاء
يصير سهما فى منايا متشابهة فتية
وأنى لأشهد عليك وأنت تظلمين السؤال وتخرجين القافلة عن ضفافها
وأنت تتوزعين فى قارورة الرؤيا أكثر من الأصابع
وأكثر عددا من أقدار ذبيحة
نساؤك مقبلات فى شهورهن الحرام
وبعيرك طائش اللب ومأفون
من منا أجاد التربع على الظبية
كان ذلك قبل أن يأكل البرق نصيبه من الغيمة
ويقسم ذلك الوجد المشغول بالشفاعة
يـــُقَسمُ ولا يتكلم
وكأنى أمنحه الموت مرتين

وأمنحك الحياة كجمجمة فى تابوت، كضوء يدخـــّن أو كسماء جزعة عن التحليق فى ليلتنا أكلنا الرطب وهززنا مؤخراتنا فى صحوة الرب فى ليلتنا الألف...
اعتكفنا وأرديتنا ترتجف من هول الصفير
ذلك الضعف يرتحل فينا ولا يرتفع
مثلكَ أنا... خياشيمى تحّن إلى التراب وساقاى.. إلى الملح
حلمي الذى أعرته إليك طار بعيدا وصار نهاية بصحبته غراب عاشق للجيف عالق فى لسانه الدود
هكذا... اخترت الزاوية القصية للسعادة، وتناهيت فى الصغـــر حد أن أى شرخ فى قدمى يبتلعنى
أى نملة تعيد الكيان إليّ، بل أي فراشة تندس في عينيّ وتمنح الشحم للطريق
هل تتوجنى يا آتيه وهذيانا يطهو لسانه
أم أنى محاصر بالتحسس وكلماتي قليلة الشأن وأفكاري عجولة
هل أسميك انهماكا بالقبلة الوحشية وأعتليك لأسقط مهشما ساحبا الغطاء عن ركبتى السماء وليس فيَّ سوى هاوية القاع حيث يجيب الصدى مرتخيا
أسميكِ... أنتِ
وأسمو إليكِ
أسميكِ هي
وأسقيكِ شعاعا
أسمي عليكِ وأسعى فى تيهك المشروخ
أسميك... ثانية
أسميك "آتية" وأهذي!

I - عسـل الـملوك

هذه الغيمات ليست ملكي
وأنا غريب عن دموعى كغربة المطر
فى الصحراء، وكأنى أخذت من الأرض تاج نعلى،
ومن الشجر صمغ المذلة
ومن روث الأبقار قوسى ودأبى على المسير..
وكصياد للسعادات، أقبل الصمت نيابة عن جزعى وأحط بكل خطوة...
حناء لها طعم الوحشة وبذخ الكسل
ولى فى أحشاء الولادات
سيرة محارب
وقناص أرانب
وفاتح أبله لمدينة (الشمس)
من غيرى...
يصبر على ملاعق الذهب وداء الملوك ولحم الضأن الذى أدمنته حشرات المعدة
فتقيأت... ذكورة الحياة حيا وعاريا
والنوارس "قلنسوتى" وسارية تيهى وعلامة زهوى طائشا فى المسافات
ولى حصانة خاطئ أبدى جازها لى إله: ضائع

وعافنى أرتقى صهوة حلمى
وفى "خرجى" طاسة العسل من دبق الملوك
وهذا (زنارى) شمعة قضمها الظلام وسرح خصلاتها هواء أحمق
وكان (وثني) من التمر ونقيع المساءات يفتح لى...
قيامة الصعود،
من خصلات جافة و(خروع)
العجائز،
معمرات وشاردات ومؤمنات بكأس القدر المقيت
كأنى بهن، عطايا ناقصة
وصوت زنبور يتوجع
ها أنذا... أرمم بيت الأفاعى وأنثر الشر على الأرغفة
وأقول لأية ملامة مقبلة
أخذت من الفقر، ابتساماتى وطيفى فى الأعالى
أسفل السعادات
بكل عسل الملوك...
أغمس نصيب بوذا من عِرقه الأبيض وحلمه الكسيح
وأمثولة الطيف والمصيدة
فأحط النعش... وأدبــِّجُ فيه قولى عن المحبة الآفلة وجفاف حليب الأمهات حيث ما تبقى من الأصل يبتعد والمسير هو القبض عاى ظل هارب حتى من قدميه
ما لدينا بعد... شيء... نريده
أكثر من صولجان شقى ضاعت سلالاته
وللصلاة قبلة مرة وإله رضيع
هكذا هو عناد طبعى وعبث أقدامى بألواح الصخر ببحر الأمل والفقدان

وأقول أنا (البوذا) الأخير على هذه الأرض
وإني حصلت على عسل الملوك
وكفنت عصايَ بالعبث والضحك والعنفوان وأودعت مكنستي أمانة عند الجيران من أجل ملك فقير قادم ينشر ملابسه البائسة على حبل غسيل دارنا الصغيرة الرائعة حين كان لي نافذة وخلفها كان لي قمر ولا بأس من طريق في قلب الغابة يدفع الرعب إلى شرابي ويعينني على الصلوات.

II - كرة النار

وحمل الحطابون ثأرهم ونشروا الخراب فى الجروح العجفاء العتيقة،
وكانت عيونهم من نار وأفواههم من زعيق وألسنتهم من لهب
أصفر مزرق قليلا من أثر التآكل... والعويل...
فقال (بوذا) يهم بالاستعانة بنشيده الآمل...
وفى ذهنه كلام آخر عن الانقراض والتلاشي
وفحمة الأجساد الراحلة...
وفى النار يرقص (هيرقليطس) العجوز
ويأكل المرء قلبه مشويًا
ويغدو مطبخا فى غابة...
ومجمع الكلام والدفء وأمان الآلهة
وسأسمى نشيد (الاحتراق) ذاك الذى يوسع من ظلال العطش
وسيكون شأننا، بقايا أشواك عبثت فيها حوافر الخيل وغضبات البرارى
أراهم عبر سراب النار يلتقطون الأرز بالبارود الساخن وأنا دليلهم الأحمق، إلى السلام النائم... هناك
أنا (البوذا) بقايا الأمم
والحبو على الأرض... طمعا فى السماء
شعارى بقايا خلاص...
اسمه الفقر الفاتن، وعبق القلب وأنشودة العصافير، فالشمس دائما محترقة

دائما محترقة
وما البرودة إلا سهم مهلك
وكألف من المؤامرات،
أثنوا على قريحتي وهيجوا إلى بكل ما أنقذته من الاحتراق
الغضب المناسب لإباحة الشرف
الرقص مع الآلهة الوهاجة
والحب تحت ستار الدخان والتيمم بالأبخرة
وشيء من بقايا حريتي الموحشة وأحلام كرتي من النار والرماد والرمم.

III - ابتسامة التماثيل

أُسَـــمّى بوذا... كل طائر لا يقلق
وكل حشرة لا تأكل أختها
وكل وحش يصلى
و أُسَـــمّى بوذا حقا
كل من لا يمتص عروقى ولا يشغلنى عن الألم
وكان الرمل يعابث هواه ويملأ الخوف شروقه
وسأتوجه (بوذا) بحكمته النابحة وصمته المهين
كل من يأكل تراباً على غيمة ولا يعبأ بقرصات الشيطان
ومن يقتل عمره... مراهنا على بعوضة وفى جسده وشم الملذات
وفى أسفل (قعره) دبق العسل وحشرات بلون الكرستال وفقمة ساهية وأخرج قلبه من صدغية... وهال على وريده التراب وتحسس خطراته الآملة... وتنفس قبسا من اليأس والحكمة فماله بعد فى صحرائه من وليد ولا بنجمةٍ تواكب طيشه وتزرع الوردة على معصميه... وعلى وجهته أن تمر ظنونًا ومسخٍ جديد، كأى أسد جائع يصيد الحشرات بعيون مفتوحة وكانت التماثيل تبتسم لنبى قادم اسمه الحجر المبارك وأصغى إلى القرطاس فأجاب:
الأمل الوحيد للإنسان هو الموت وما الحياة إلا التعذيب بالعيش منتحرا.

IV - كسل الرهبان

ونقلت طاسة الحناء إلى كفه، ولعقت شفتاه نذور (الفراغ)
وتقدم الرهبان
أثنين أثنين،
رءوسهم الحليقة حاذت بعضها بعضا حتى ارتفعت الصحراء إلى مستوى أكتافهم وسبلت عيونهم من هول السراب فانطلق بروحه وأباح لها حصة الكلام عن كنوز الصمت
فحلقت تقول:
ما نعرفه... ليس هنا
فلا يدل التيه على معناه بلا تيه مقابل
ما نعرفه هو ما نسيناه
فالمرء لا يعرف ما فى نفسه قبل حلولها فيه
وما يحل الكيان فينا حتى يمتطى صهوة الزوال وينسى
أوصيكم بالنسيان
فالنسيان أمان والذكرى وجع
والكلام لقمة من هواء ما معناه هو ما نعنيه وما ننعيه لكي نبقى
ولا يكون المرء قلبه بلا رهبة صادقة
والخوف وحده هو الملك فى صحراء الزمان
فكم من العيون عتقت وذبلت راقصة
وكم من الخطرات بصقت على سماء الرمل
وهى تنتظر المجيء الحر للوعد النهائى

وما كان لها ما تريد سوى جمرة الانتظار وحرقة الأعصاب وتملل القدم

فمن هو العارف بلا معرفة والمشرق على فحواة القانط، الساكن، المعتق فى جلده الأرضى والمعطل عن السعير

غير أن يكون صخرة فى جذوره وظلا فى نواياه

ذاك الذى يُحيى الحياة ويـــُميت الموت ويبتسم كطفل المعرفة راضيا بقلة الثمرات وخشونة الرغيف، وعار المعرفة أن يكون العقل عقابًا

– فردد الرهبان:

العقل أم العقاب؟

فأجاب بوذا:

– المعرفة هى الرعب.

وتساقط الرهبان على قدميه كنمل أبيض، واقترب منه (اليوغى الصغير) وجذب رداءه مرتين، فما أعاره (بوذا) انتباها.

فندت صرخة مكتومة من (اليوغى الصغير) وتفجّرت دموعه.

فجفل (بوذا) ومد إصبعه الوسيم على شفتيه وهمس بأذن (اليوغى) وتكلم على مهل ما بعده مهل:

– أصبر على نفسك فالدموع تذيبك وتأخذ من رأسك غيمة مؤهلة للخصوبة والعطاء.

وكان الرهبان قد غسلوا قدميه الصغيرتين بالبكاء والنذور

– لا تغرك كثرتهم فالقطيع مطيع والواحد هو الأصل.

فتراجع كاهن أصلع وأمسك صدره بكلتا يديه وسقط هامدا.

– هذا من فرط الحماسة فالحب مذلة... وما الكراهية إلا قوة مساعدة

وحينها عقر (صقر) بطن الكاهن الصريع وحلق ظافرا فأرسلت الجموع صيحة واحدة.

وهللت للسماء بنداءات عتيقة:

هذه رقصة الشر.

لحظة وداع الغنائم الآدمية...

فجذب (البوذا) يد (اليوغى الصغير) وصعد تلة (الوجد) وأومأ إليه أن يجمع (الأشواك) ففعل، ثم أمره أن يدس الأشواك عند النزول من (تلة الوجد) فى جوف الجثة المبقورة التى طفحت دماؤها على الجانبين ففعل...

حينها صفق بيديه وأذن بغياب الطاعة وعودة الحياة إلى فراغها فتفرق الرهبان وكان (البوذا) يود أن تبقى (الجثة) وحيدة

فعندما يجيء الموت لا يفضل أن يجد الكثيرين فى انتظاره.

وشعر (البوذا) بحيرة (اليوغى الصغير) فطمأنه بنظرة حالمة وابتسامة بلا أسنان، وكان قد سمح له بأن يكون رفيقه فى بقايا التيه فى الصحراء... وهو ينظر إلى نحافة (اليوغى) وصلعه المبكر وبؤس خفه الجلدى وبساطه الصغير المنكمش على كتفيه.

V - "إسرا" بوذا

وكأى صحراوى عتيد حَطَّ رحاله فى مغارة العرّافات في مضارب الصحراء وطريق الحانات التي تكحل جدرانها الخشبية بالقيء والبصاق حيث تأبى ذبابة أن تطل برأسها على هذه النفايات وكان الوقت قد جنح إلى الغروب وما زال رسّام كسول يسحب العصافير والطيور من النهار وحينها صار ممكنا الكلام عن النعيم الجسدي حيث يختلي المرء بآخر ويلحس الرحم الذي لفظه وحكم عليه بأن يكون فردا في معطفه الجلدي وذاتا في ضعفه المتورم.
وكان الدخان يرقص على منخريه وتنساب روحه منه كوردة قطن وعاتبته عرافة صفراء اللون وفاحت بوجهه وأولته اهتماما خاصا ومالت برأسه إلى الخلف قليلا وقالت:
– إنها سمراء اللون، وشعرها مظلة للنجوم وعيناها قمران راحلان فى فضاء فسيح بأنفها شجرة زعفران وشفتاها رافدان للتشّوق لهما جرفا محمرا، فانشقت الأرض وحضرت الأنثى مباركة بسحاب الزوال فانطقت (بوذا) كما لو أنها انطقت حجرا.
– من أنتِ؟
– أنا مرآة لك إذا ما نبذتك الرؤية... أعيد ذاتك إليك إذا ما فارقتك الأوهام؟
– وإذا قيل لك أنى مجرم عتيد؟
– أصدق البراءة فيك وأرد الجريمة إلى صانعها.

– وإذا قيل لك بأنى مجنون؟
– الجنون شجاعة إذا كانت الحرية فى خطر.
– وإذا ما هجرتك ما شاءت لنا الأزمان؟
– العفة عنوان المرأة وطهارة نفسها جهاد ما بعده جهاد.
– ما الشرف يا إسرا؟
– إنه أناء بلورى نفيس لا يحتمل السهو أو العبث
– والدعارة
– إنها أفعى خبيثة تتحرك فى مثلث الفخذين إذا ما نقطت سما فسد الجسد كله وتلاشى الجمال.
– ما الجمال يا إسرا؟
– أنه انسجام الروح والجسد ونسيان خصلة من الشمس على جلد رقيق.
أو سقوط ثلمة قمر فى مرآة صغيرة.
إنه لحظة عابرة لإرادة الكمال.
وكان (اليوغى الصغير) قد شعر بالسرور وهو يرى حظ معلمه على أحسن ما يرام
لولا أن (البوذا) أرسل نظرة مركزة ذات لهب إلى (العرافة الصفراء)
وقال بما يشبه الصراخ:
أأرى مسار الدم فى قنواتك الغائرة فى جدار الغيب؟
أنها أولا معرفة الشفافية ثم شفافية المعرفة ثم تكشف (المواد) عن عريها وأصلها فراغ.
ثم سرعان ما غضبت (إسرا) وقالت بوقاحة:
– ما خلقت الحكمة لآخر وما لبوذا غير (فراغه) العالق على ساق من دخان.

فنطق (اليوغى الصغير) سابقا معلمه المبجل:
– إنها تَصِمك بالعقم ورماد الفينيق.
– دعك منها فلها حكمة سالكة وشرف صامد وجهاد كبش فى نطاحه لصخرة.
ثم سرعان ما استحالت (المغارة) دربا من رمال وطارت (إسرا) إلى نجمة الظهيرة.. وغدت تلعب هناك فى أرجوحة بسعة السماوات ولم يكن أى كان قادرا على رؤيتها هناك، حالمة وفاتنة ولا غبار عليها.

VI - النشيد الناقص

وكأن بك قد دفنت ظلك الأملس، فى الكلام الفج، النحس، الوضيع.
واعتمرت الرحمة رضاعة مجانية وقست قامتك بمتر من معدن رخيص.
وكان الأولى بك، أن تمط أذنيك وتبتر ذنبك وتأخذ قبضة من ريح لتهلك السؤال بالسؤال..
وكان قد هُدر دمه فى البقاع حين هم بأن يتغنى بنشيده الأخير.
وكان (اليوغى الصغير)، قد لحس الشيب رأسه وأكلت الصحراء زعانفه وانهالت على ذقنه الرمال والجهات.
وتخلفت قدماه عن روحه وارتضى فسحة من الصحراء محطة زوال أكيد فعاد إليه (بوذا) وجس نبضه وقال له بنبرة أب عطوف:
– لا تدع الحياة تنساب منك بضعف، وتذكر أن قوة الحياة هى إرادة الوليد وإيمانه التام بأنه محق فيها.. فكل من وجد هنا، أصبح العالم ملكه ولا فضل لأحد عليه.. فالعدم كريم فى عطائه ولكن إلى حين.
ها أنذا، أمنحك سر الخليقة المتدحرجة فى (عمائها)
(فأبصر للحظة خفاشا كبيرا يحاول الدخول فى منخرى (اليوغى الصغير) وهو يعض على شفتيه فما أن سمع (اليوغى) كلام (البوذا) حتى بصق دما وعضّ على شفتيه فاستحال الخفاش حشرة سوداء

تكورت وسقطت بعيدا فنهض (اليوغى الصغير) على قدميه وعدل من وضع "خرجه" المتدلى على كتفيه.
شاهد (بوذا) على وجهه فراشة وردية كانت تغمز على خديه وتراقص عيونه الحادة المستعرة.
وما إن مشى صوب معلمه حتى سمعا معا عواء ذئب مقبل من بعيد.
فأجابه (بوذا) بكلام لم يفهمه (اليوغى الصغير):
فردد (بوذا) بضع كلمات عجولة ثم خاطب (اليوغى الصغير) قائلا:
– لا تتعجب فلقد أدرك الذئب الوحيد بأن الحكمة النيرة تضيّق عليه الصحراء.. فالشرير يقوى صراخه ولذلك يكون لبوذا أن يطارده الشر من خلف، فى الوقت الذى يفر الشر من أمامه كأى طريدة بائسة وقد اتسعت عيناه حتى غدت بسعة الصحراء وهو يحث خطاه بلا اكتراث جمل وبعناد نملة وإلى جواره كان (اليوغى الصغير) يدفع البلاء عن معلمه ويعود عينيه على رؤية العالم وهو يغتسل بالضوء والعراء اللاذع الرهيب.
وكانت (العـــزّة) تأخذه بما امتلأ به هذا الإناء المترع من غبطة وزهو.. وقد آن أوان سكرة الأرض وتلعثم الوجود بالعطاء وقد شارف العمر على غروبه الدافئ المهين وما أن أكلت عيناه هذا المدى كله من الصحراء العتيدة حتى تلبدت السماء بالغيوم واعتمرت الآفاق بدخان أسود وهى ترسم أشكالا مائعة بريشة مرتعشة.
نظر (البوذا) إلى لوحته البعيدة، الهاربة، لوحته التى نظرت إليه بعيون (كبش) هارب يطارده صياد كهل وهو يأكل قطعة من جبل أسود ويبصق خلفه أفيالا صغيرة متورمة...

شعر (اليوغى الصغير) بأن (بوذا) ليس على ما يرام وقد بدا ساكنا سكونا مطلقا، وقبل أن ينطقه بالسؤال أجاب البوذا صارخا:

– تعال معى.

وانطلق يهرول، بركضة مجهدة، ركضة جمل عجوز انطلق خلفه (اليوغى الصغير) وما أن أصبح بمحاذاته حتى أنبت (بوذا) عكازته الخشبية فى رمال الصحراء والتفت إلى صاحبه وابتسم ابتسامة أليفة وقال:

– لقد وصلنا مركز الصحراء.

قهقه الشبح وهمس فى أذن بوذا قائلاً:

– لا يا صاحبى ما زلنا فى المصحة ذاتها.

فشاهد البوذا جرذانًا كثيرة تفر أمام ناظريه فصرخ بها:

– أنا بوذا الحكيم.. ويْحَـكُـم.. أنا البوذا الأخير على هذه الأرض

من سرق عصاى؟ ومن أضاع ظلى على الشجرة اللقيطة. من سرق كترى من الشموس واللآلئ؟ لِمَ تُجهزون على الحكمة قبل أوانها؟ وما طعم هذه الأرض التى لا سماء لها؟ من؟ من؟

فشاهد الشبح للمرة الأولى مطرًا فى الصحراء وكان هذا بوذا يبكى..

وقد أخذت الأرانب تعود إليه بسرعة وكذلك الطيور والأشجار والأشباح والأنهار والحجارة.. فى تلك المصحة البعيدة والسعيدة التى لم يكن بها بوذا.. على الإطلاق.

انتهى

خضيـــر ميـــري

سيرة موجزة ومحطات كتابة

* ولد ببغداد **1964** في منطقة (جراج الأمانة) أحدى مدن الفقـــراء في بغداد الجديدة وتنحدر أصوله من جنوب العراق (الناصرية).
* عمل في الثقافة العراقية مبكرا ونشر مقالاته في الفلسفة والنقد وهـــو دون العشرين من عمره وكان من الصعاليك الشباب ومـــن حلقـــة (جان دمو وعقيل على وكزار حنتوش) وتعرض للتوقيف في مراكـــز شرطة السعدون والبتاوين لسوء سلوكه وأثبت حضورا غامـــضا في الـــمصحات النفسية العراقية كنـــزيل مزمن فيها.
* درس في كلية الفنون الجميلة عام **1983** ولم يكمل الدراسة.
* **1986** تعرض للاعتقال والتعذيب لأسباب سياسية أدت إلى إصابته بالانـــهيار النفسي حوّله كنـــزيل أجباري في (مستـــشفى الرشـــاد للأمراض النفسية والعقلية) من **1987** إلى **1991**
* هرب إبان حرب الخليج الثانية من الـــمستشفى واختفى عن الأنظار وأصدرت الجهات الأمنية أمر القاء القبض بحقه ثم عاد للظهور عـــام **1993** بعد أن أصدر النظام الصدامي عفوًا عن الهاربـــين خـــارج القطر.
* **1993** نشر كتابه الأول في الفلـــسفة (الإشـــكالوية والـــمعنى في السؤال الفلسفي) بمساندة من دار الأمد الفلسطينية في بغداد وبدعم من الناشرة الفلسطينية حكمية الجرار.

* 1997 أصدر كتاب (الفكر الـــمشتت تعقيب على فوكو) عـــن دار الصخرة، عمان، وتعرض من جديد لبعض الـــمضايقات الأمنية فعاد للنـــزول في مصحة (ابن رشد للأمراض النفسية) اتقاءً من النظـــام الصدامي وتواريًا عنـــه حتى عام 1998 حيث خرج وعاود الكتابـــة في الصحافة العراقية والعربـــية كاتب في الفلسفة والنقـــد والعلـــوم الانسانية

* يودع في عام 1999 في مستشفى ابن رشد التعلميـــمي للعلاج مـــن الإدمان ويقوم الاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق بتكفل نفقات علاجه.

* 1999 أصدركتابه (الجنون في نيتشه) عن دار الغد العراقية بمـــساندة من الدكتور يوسف حبـــي .

* توقيف في مكرز شرطة الكاظمية بدعوة كيدية يسانده فيها القـــاص عبد الستار ناصر ويطلق سراحه.

* 2000 يصدر كتابه (أيام الجنون والعسل الحـــرب علـــى مستـــشفى الـــمجانين)عن دار الشؤون الثقافية العامة بغداد – تنفـــد الطبعـــة الأولى ويكتب عنـــه كبار الكتاب العـــراقين ويتـــرجم الى اللغـــة الانكليزية والفرنسية.

* 2000 يترجم أيام الجنون والعسل إلى الفرنـــسية بترجمـــة للـــشاعرة الجزائرية رشيدة محمدي ويثني الشاعر الكبـــير (صلاح استيتيه)على الكتاب حين زار بغداد.

* ينقطع هن الظهور ويـــمر بتجربة صوفية قصيرة تسفر عـــن كتابـــه (صحراء بوذا).

* في عام 2001 يصدر له دار الزاهرة في رام الله (فلسطين) كتاب نثري طويل حمل عنوان (صحراء بوذا) قدمه الشاعر مراد السوداني رئيس تحرير مجلة الشعراء ورئيس (بيت الشعر الفلسطيني) ويوضع اسمه ضمن (هيئة التحرير العربية لمجلة الشعراء).
* 2001 ينجح في السفر إلى عمان ويبقى ستة أشهر يؤسس فيها (جمعية الجنة لرعاية المواهب المرضى النفسين والعقلين) وتنشر له نصوص نثرية وبعض الحورات في الصحافة الأردنية ثم يعود إلى بغداد.
* 2003 يصدر مجموعة قصصية حملت عنوان (سيرة ذاتية لجمجمة) في دار الشؤون الثقافية العراقية. ثم يشهد سقوط النظام الدكتاتوري فيصبح رئيس تحرير جريدة (الاستقلال) من أعمال الوفاق الوطني، وبعد أعداد قليلة يختلف مع رئيس مجلس الإدارة ويجلس في البيت يكتب مذكراته المعروفة بـ (تصريح بالجنون – رحلتي من التعذيب إلى المصحة العقلية) وتظهر بعضها على شكل حلقات في مجلة (المستقبل) التي يرأس تحريرها محمد عبد الجبار الشبوط.
* 2005 تصدر (تصريح بالجنون – رحلتي من التعذيب إلى المصحة العقلية) بطبعة محدودة سرعان ما تنفد من الأسواق.
* يعمل في جريدة الصباح العراقية ويراس صفحة (آراء) ثم يرأس الصفحة الثقافية ويكتب عمودا ثقافيا يوميا لأكثر من سنة ونصف تحت عنوان (الموقف الثقافي)
* 2006 يصدر مجموعته القصصية الثانية (حكايات من الشماعية – ثم يغادر العراق على إثر تهديدات صارمة بحقه إلى القاهرة حيث يتفرغ للكتابة والتأليف.

* 2007 تصدر له رواية جديدة تحمل عنوان (جن وجنون وجريمة) عن دار نشر (نفرو) لصاحبها الشاعر المصري محمد الحسيني .
* 2008 صدور الطبعة الثانية من "أيام العسل والجنون" عن مكتبة مدبولي – مع نص "حكايات من الشماعية " في كتاب واحد.
* يصدر كتاب صغير بعنوان "آتيه.. أوراق منزوعة من كتابة الجنون" عن دار "اكتب" ويرشح الكتاب دون إذنه إلى جائزة البوكر العربية.
* لقاء مثير وعاصف بالمفكر العراقي عبد الحسين شعبان يسفر عن كتاب حواري ضخم يجري بينهما في القاهرة.
* نهاية 2008 سفرة قصيرة إلى بيروت بمعية عبد الحسين شعبان لاستكمال العمل على الكتاب.
* العودة إلى القاهرة والانكباب على مواصلة مشروع كتابه الجديد عن الموسيقار نصير شمه.
* مطلع 2009 صدور كتاب عبد الحسين شعبان "تحطيم المرايا – في الماركسية والاختلاف" عن دار ناشرون – بيروت بالتعاون مع منشورات الاختلاف فى الجزائر.
* يطلع الشاعر (محمد عفيفى مطر) على دفاتر المصحة المكتوبة فى سنوات 1983– 1993، ويعجب بها.
* يرتئي الشاعر (محمد عفيفى مطر) نشر الجزء الأول المعنون بـ (سارق الحدائق) ويخصة بمقدمة خاصة تعرّف بأهمية النثرية المبذولة فيه، وتلتزم دار الناشر فى مصر بطبعه فورا.
* فى يوليو 2009، صدور (سارق الحدائق) عن دار الناشر.
* 11 يوليو 2009 احتفالية نقابة الصحفيين بالقاهرة بصدور كتاب

(سارق الحدائق)، ويقوم الناقد الكبير د. عبد المنعم تليمة بالمداخلة النقدية على الكتاب، ويعده جزءا من السيرة الذاتية للكاتب ونوعا من النثر الجديد الذى يمتلك الجرأة العالية والصراحة الفجة.

* يوليو ٢٠٠٩ – الطبعة الأولى من رواية (الذبابة على الوردة) – الحضارة للنشر– القاهرة، والتي لاقت ترحيبا كبيرا من النقاد.

* سبتمبر ٢٠٠٩– الطبعة الأولى من المجموعة القصصية (كيس أسود مخصص للأزبال) – تقديم الروائية سلوى بكر – الحضارة للنشر– القاهرة.

* ٢٠١٠ – مسارات ورؤى (حوارات – نصوص – شهادات) – إعداد بلال رمضان.

* * *

يصدر قريبا للمؤلف عن الحضارة للنشر:

- كتاب الجيب للمحكومين بالإعدام – مِن قطْعِ شجرةٍ للخيانةِ العظمى.
- جحيم آرتو (مسرحية).